# الساعة 630

## أسرار الفاو

سعد البزّاز

مركز العالم الثالث للدراسات والنشر. لندن

# الساعة 630

## أســـرار الـفــاو

بسم الله الرحمن الرحيم

سعد البزاز

# الساعة 630

## أسرار الفاو

مركز العالم الثالث للدراسات والنشر . لندن

# 630 HOUR: FAO SECRETS

By Saad Al-Bazzaz

Third World Centre-London.

First Edition, Spt. 1988.

- الساعة 630 : اسرار الفاو
- سعد البزاز
- التصميم: ليث متي
- الطبعة الاولى - ايلول (سبتمبر) ١٩٨٨
- مركز العالم الثالث للدراسات والنشر - لندن
- حقوق الطبع محفوظة - لا يجوز النقل او الاقتباس او اعادة النشر الا بعد الحصول على موافقة المؤلف والناشر معا.

# المفتاح

سقطت على ارض الفاو ـ بين احتلالها وتحريرها ـ سبعة ملايين قذيفة متفجرة، كانت كافية لتمسح مدينة بسعة لندن عن الوجود، وضحى العراقيون دفاعا عن شبه الجزيرة بعدد من الشهداء يزيد على ماقدمه العرب من شهداء في حرب عربية اسرائيلية واحدة واخرجت معارك الفاو ربع القوة القتالية للقوات الايرانية النظامية وغير النظامية، وغنم العراقيون في أرض الفاو سلاحا ومعدات وذخائر يتجاوز وزنها نصف مليون طن، وهي كمية كافية للاستخدام في احتلال بلد بأكمله، وكانت المدافع والدروع التي خلفّها الغزاة خمس ما تملكه ايران في السنة الثامنة للحرب

تتدافع هذه الارقام على مساحة من الارض لا تتجاوز «٢٥٠» كيلو مترا مربعا فقط، ولكن هذا الجزء من ارض العراق كان مفتاحا لكثير من مغاليق الحرب، الايرانيون ارادوا ان يجعلوه مفتاح احتلال العراق والسيطرة على عنق الخليج، والعراقيون جعلوه مفتاح السلام ونهاية الحرب.. وفوق مثلث

صغير ومقفل من الارض كان على الحرب أن تقرر مصيرها.

ففي الحرب قانون وجد لنفسه تطبيقا على أرض الفاو، هو أن الانهيار لا يحدث تدريجيا، انما يأتي مرة واحدة مثل كرة متدحرجة على سفح شديد الانحدار، فما كاد العراقيون يحرر الفاو في ست وثلاثين ساعة حاسمة، حتى بدأوا يحررون الارض العراقية المحتلة كلها، شرق البصرة في الشلامجة، وشرق دجلة في جزر مجنون، وشرق العمارة في الزبيدات، وفي المرتفعات الجبلية في الشمال والوسط.

ولم يستغرق ذلك غير ثلاثة أشهر أجهزت على كل ما حققه الايرانيون في ثماني سنوات من الحرب بضمنها ست سنوات كانوا خلالها يشنون هجمات واسعة بهدف احتلال العراق والغاء سيادته.

تدحرجت الكرة، وتلاشت احلام الايرانيين للاستحمام على شواطىء الفاو، وأنفجر الفشل المتراكم في نفوس المقاتلين الايرانيين على هيئة خوف متجمع تصعب السيطرة عليه في حالة التقهقر بعد حرب خيم عليها اليأس المتتالي والشعور العميق باللاجدوى.

فجمع العراقيون في الفاو وما بعدها من معارك تحرير الارض اكثر من عشرين ألف اسير، وغنموا سلاحا يزيد وزنه على خمسة عشر مليون طن، وتزيد قيمته على مجموع واردات النفط الايراني خلال عامي (١٩٨٦ / ١٩٨٧)، ليختصروا

بذلك المسافة نحو السلام.

ومثلما كان تحرير الفاو مفتاحا للسلام كان أيضا مفتاحا لمغاليق ودهاليز الدبلوماسية الدولية، بكل ما اتصفت به من دناءات السمسرة وعُهر المصالح. فقد انهى العراقيون مناورة الامتصاص البطيء للدماء، وبرهنوا أن الشعوب يمكن أن تصنع مصائرها.. وأن أحدا لن يجني شيئا من التوسل عند أبواب المحافل القتيلة.. فأصنعْ شيئا يتبعك الاخرون.. ويرتبون خطواتهم على وقع خطواتك.. وحين تفعل العكس فأن أوطانا بكاملها يمكن أن تضيع..

وفتح تحرير الفاو، طريقاً رحباً للسلام، اهم عناصره هو خصي شهوانية التوسع الايرانية، واقتلاع أنيابها، بعد أن كانوا يستسهلون الهبوط من الهضبة الى السهل، تغريهم الجغرافيا بالغزو، عندهم الهضبة المرتفعة مع موانعها الطبيعية، ولدى العراق السهل المنبسط، رغم أن الهضبة نفسها ليست ايرانية خالصة، فقد اتاحت الاتفاقيات الدولية (على مدى خمسمائة سنة) لايران ان تقوم بقضم تدريجي للارض العراقية، وهو الامر الذي جعل لخارطة العراق خصرا متقعرا من وسط الشمال حتى جنوب الوسط.. فحيثما كان هناك مرتفع اعطوه لايران، وحيثما كان هناك سهل متقعر تركوه للعراق، بحيث صار للماكث على الهضبة شهوة للتجاسر والتوسع والتمدد على حساب سهول العراق وبطاحه. مع

دافعيـة اخرى توفرها الجغرافية لنزعة التوسع، حيث تمنح مساحة ايران الشاسعة (١٦٤٠ الف كيلو متر مربع) التي تزيـد اربع مرات على مساحة العراق شعوراً لصانع الغزو بأمكـانيـة شن الحـرب على العـراق ثم الانكفـاء في العمق الجغرافي الشاسع بعيدا عن اذى هذه الحرب وقتالاتها و مراراتها.

الجديد في الحرب العراقية الايرانية انها افهمت الايرانيين عبـر دروس كثـيرة منها درس الفاو، ان العراق ليس الجار الاضعف من بين الجـيران الخمسة المحيطين بأيران. وأنه ليس المجال الذي ينفس فيه الايرانيون عن عقدهم المتراكمة في الجغرافية والثقافة والتأريخ والاقتصاد.

في سنوات الهيجان ضحك الايرانيون، وطغوا كثيراً ولكنهم نسوا ان المهم من الذي يضحك اخيرا، إذ أن الدرس الاخير هو دائمـا، من نوع لا يُنسى، لاعتبـارات تأريخية ونفسية، تخص الجيل الحاضر، ومن ياتي بعده من اجيال، وكان درس الفـاو، ومـا تبعه من دروس حتى توقف اطلاق النار، اجابة كافيـة على صيحـات الهيجـان الطاغي.. ونداءاته لاقتحام أسوار بغداد، وابتلاع ارض العرب على اليابسة ما بين مياه المتوسط وميـاه الخليج، وما بين مياه البحر الاحمر ومياه الخليج، في أشره خطة سادت عقل حاكم كان يحلم بأستعمار الاخرين. والغريب ان الايرانيين اشتكوا لان العراقيين كانوا

بلا رحمة معهم وهم يخرجونهم من ارض الفاو، وغير الفاو، مع ان احدا لم يقل يوما ان العراقيين كانوا سيقدمون قطعا من أوطانهم على أطباق من فضة لمن يشتهي.

لذلك كانت الفـــاو مفتـــاح النهـــايـــة.. لكي يتـــوب الذين يصنعون القرار في ايران ويراجعوا حساباتهم كثيراً قبل ان يطرقوا ابواب العراق كرةً اخرى..

هنا اروي قصة ما حدث .. كما شاهدتُ وسمعتُ وعرفتْ

**سعد البزاز**

# طريق الحلم الاسود

يعتقد كثيرون، ان «الفاو»، لم تكن موجودة قبل قرنين في موقعها الحـالي، وقد اخذت اسمها من سفينة جاءت الى مصب شط العرب. وخاضت في مياهه على بعد بضعة كيلومترات شمالا، فغاصت فيه، ثم تحـطمت، وكان أسمها (فاو) فصار الناس يسمّون القرية الصغيرة، التي تحولت الى قصبة بعدئذ، بالفاو، رغم أن اللغويين يفضلون اعادة هذا الاسم الى أصله ودلالاتـه القاموسية، فهو عند ياقوت الحموي «الفـج الواسع بين جبلين» كما ذكر في معجم البلدان، ويذهب اهل المنـطقة الى القول ان للفاو معنى (الفم). وهي فم العراق المتدلي في منطقة المصب من شط العرب..

مع ان هناك شواهد اثارية تدل على ان هذا الجزء من ارض العراق قد شهد قبل ٢٥٠٠ سنة اول معركة ظهرت فيها الضفادع البشرية، عندما خرج من اطراف البحر رجال كانوا قد غاصوا فيه مع اسلحتهم ليفاجئوا اهل البر بوجودهم، فوقعت اول معركة عرفت فيها الانسانية رجال ضفادع بشرية في التاريخ، عندما كانت الفاو في موقعها الحالي جزءاً متداخلا مع مياه الخليج العربي.

وقـد اختـار الايـرانيون، ان يبدأوا غزوهم (في شباط ـ فبراير ـ ١٩٨٦) في الفاو، التي تنحصر بين خطي العرض ٩٤ ,، ٢٩° و ٣٤ ,، ٣٠° شمالا وخطي الطول ٢١ ,، ٤٨° و ٣٦ ,، ٤٨° ـ شرقا، وفي ارض اذا انفتحت شمـالاً ذهبت الى البصرة، واذا امتدت غرباً اخذها الطريق الساحلي المعبد الى ام قصر فالحدود الكويتية.

وقبل ان يبدأ الغزو هنا بأقل من ست سنوات، وبالتحديد منذ بداية ايلول ١٩٨٠، حزم اهالي البلدة امتعتهم، وامتطوا عربات النقل التي اخذتهم الى البصرة، بعد ان تساقط الاطفال والنساء برصاص القناصة الايرانيين الذين كانوا يتموضعون خلف اشجار النخيل على الضفة المقابلة. فصارت الحياة جحيماً على المدنيين الذين اخذوا من السنوات الطويلة الماضية دروساً في الحياة، صعبة وجميلة، وتعلموا مفردات (الأنجليزية) و (الاوردو)، وتعرفوا على طواقم السفن، وتبادلوا معهم الاغذية والملابس، وباعوهم واشتروا منهم، وكانوا يقدمون صناديق التمر المحشي والمعسّل ليأخذوا التوابل الهندية والعطور والبخور ودهن الآس.

وقبل ان يفكر شاه ايران بأستخدام جزيرة (خرج) كمنفى للمعارضين السياسيين اواخر الخمسينات من هذا القرن، كانت قصبة (الفاو) قد أستخدمت هي الاخرى كمنفى لاعتقال السياسيين العراقيين الذين قاوموا النفوذ البريطاني في العراق، اذ اختارت سلطات الاحتلال هذه القصبة لتشيّد فيها معتقلاً محاطاً باسلاك شائكة، ثم تنقل اليه القيادات الوطنية التي اشتركت في الحرب العراقية ـ البريطانية (ثورة مايس ١٩٤١) او آزرت قيادتها، حيث امضى عدد منهم فترات وصلت الى خمس سنوات. وفجّرت عزلة الفاو في اولئك الذين تملكّتهم المواهب الادبية حماساً لوضع سجل بذكارياتهم ونظم قصائدهم الحزينة من بقعة في النهاية التحتية للوطن تتحدث عن الجور الذي تتعرض له المدن البعيدة، ولم تضمحل مكانة ذلك المعتقل الا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية عندما تنفس العراق هواء مناخ سياسي جديد، وبدأت الحركة الوطنية تتبلور بتعبيراتها السياسية والفكرية والاجتماعية والادبية بأعمق مما كانت عليه في الفترة

المحصورة بين ثورة العشرين ١٩٢٠ وثورة مايس ١٩٤١. اذ كانت الحرب وتفاعلاتها سبباً في تفجير رؤىً انضج نزع اليها الوطنيون العراقيون في رسم صورة الحياة الجديدة.

ولعل من اهم ما عرفته (الفاو) في مرحلة التمخض النفسي واعتمالاته القاسية ان ضيوف معتقلها وضعوا اللمسات الأولى في تأسيس العمل السياسي السري المنظم الذي اصبح قاعدة للعمل التنظيمي المعارض للسلطة، ولأوجه النفوذ البريطاني في العراق، ومنهم فايق السامرائي وصديق شنشل اللذان سجلا جانبا من عزلة الاعتقال في (الفاو).

كان بمقدور راكب طائرات النقل المدنية البريطانية الصغيرة انذاك وهي تتجه من العراق الى الخليج، ان يلتقط صورة فوتوغرافية لمشهد مثير على الارض على طول الشاطيء المحاذي لشط العرب. فقد تشابكت بساتين النخيل على شاطيء متحدّب وبدت الاشجار بمجموعها كأنها اغصان في جذع طويل هو الشط نفسه، بينما تبدو (الفاو) وكأنها الثمرة الوحيدة المتدلية من تلك الشجرة المفروشة في اعشاب البساتين وترع الماء وانحناءات الشاطيء الشرقي لشط العرب، وكان الحفاظ على ملامح ذلك المشهد جزءاً من الصورة الرومانسية الحالمة التي يحفظها بعض العراقيين لقصبة الفاو المتربعة في طرف النهاية الجنوبية البعيدة للبلاد بين شط وبساتين تشتهر بأكثر من مائة نوع من التمر اكثرها لذة البرحي والخستاوى والمكتوم.

ويندر ان ترى في تلك البساتين عصفوراً يعبر لوحده فوق رأسك. حيث تأتي اسراب من عشرات البلابل متتالية تغطي الفضاءات التي تسقّف رؤوس الفلاحين ورجال البحر والمزارعين الذين اجتهدوا في فتح الاراضي المعروفة بـ (الحُوز)، وشق الترعات الصغيرة لامتصاص الماء الهائج الذي يهدد زراعتهم مالم يتم تنظيم تدفقه وصد موجاته الاتية

في غير موعدها او مكانها.

وتـوحي القصة الشعبية الشائعة عن الفاو بان هذه القرية التي اصبحت مينـاء لن تقبـل الغريب اذا لم يدخلها زائراً يحترم قيمها وتقـاليـدها، فالماء على ضفتها رائق عذب، منساب في درب السفينة المسـالمـة، ومتصّخـر متصّلب مُستعصٍ امـام المراكب غير الاليفة، والسفن الغادرة.. كان العجوز يأخذك فيها الى ضفة الشط حيث يمتد عرضه الى الفي متر.. ويشير بعصاه الى الماء.. ومن شدة زرقته تصير العصا اثنتين. ويصير الماء مرآة وجهينا: يقول لي الشيخ: هنا تحطمت الفاو.

والفاو عنده سفينة غريبة كانت تمخر البحر من اقاصي الهند تحمل البضـائـع من السنـد، ولم يكن لاهـل العراق على هذه الضفة علم بوصولها او رأي في استقبالها.. لذلك حين اتت لم يقدها دليل من اهل الضفة.. اختارت حافات من الماء فيها صخر ممتنع مزقها، فككها.. وتركها تغرق.. وكان اسمها (فاو)، ومنذ ذلك الحين قالوا (الفاو).. رغم المعنى اللغوى الذي يفسر كلمة الفاو باعتبارها «الفج الواسع بين جبلين».

ومنذ تكوّن الدولة الحديثة في العراق، صارت تلك القرية ورصيفها البـدائيٍ ميناءً يضجّ بالحياة، وكثرت الذرية في الفاو، وكبر السوق، وتعلم الاولاد فنـون البحـار وفنـون المـوانيء وتعلموا قليلاً من كل اللغات.. يحادثون بها ضيوفا عابرين تحملهم عواصف البحر الى هذه الضفة الآمنة..

رغم اختلاف المؤرخين في تحديد عمر منطقة الفاو الا انهم يتفقون على أنهـا لم تكن بقعة مستقرة الخصائص، فهي طوراً ارض يابسة تبتلعها المياه، وطوراً ارض غرينية فيضّية يتسع جرفها ويضيق مع

حركة المد والجزر، وقد شرح المؤرخ الشهير احمد سوسة التناقضات التي عاشتها هذه المنطقة والتفسيرات المتنوعة التي اتسمت بها معالجات المؤرخين والباحثين بما يؤكد ان الفاو، وهي منطقة تغفو في نهاية الجنوب من العراق لم تكن ذات دور تأريخي يعود الى التأريخ القديم.. رغم انها كانت جزءاً من دلتا العراق الخصب.

ان تنوع التربة في شبه جزيرة الفاو ليس أمراً غريباً في منطقة تعتبر حديثة العهد في تكونّها الجيولوجي التي يراها بعض الجغرافيين ايضا غير مكتملة التكوين بالرغم من ان تاريخ التطور الجيولوجي في العراق يبدأ منذ اقدم العصور الجيولوجية.

أما الماء المحيط بشبه الجزيرة فانه هو الاخر، نعمة ونقمة ، لان البستاتين نفسها تسقى سيحا بتأثير المد الذي يحدث مرتين في اليوم القمري.

بينما جعل المد والجزر، من هذه الارض، تربة لزجة متفككة في دواخلها غير مستقرة، وهي عندما تُستخدم لحركة الآليات العسكرية تصبح أرضاً محتالة مُخيّبة، ومهما يكن.. فان ثمة صراعاً مريراً بين الانسان والطبيعة في هذه المنطقة، بعضه يومي وقد صار جزءا من نسيج الحياة على ضفاف الساحل وضفاف الشط وبين بساتين النخيل وفي البقع المائية، والاخر فرضته اعمال الزراعة ومشاكل السقي، ومنه ما اصبح ضرورة لبناء الحصون والترسانات التي تدافع عن هذا الجزء من العراق، الذيُ تفتحت في اتجاهه شهوات الغزو غير ما مرة، من الفاو حتى منطقة الاهوار ـ شمال البصرة وشرق العمارة.. صراع دائم لاعادة ترتيب شكل الارض، وفروع الماء، في الجزء الذي كان العالم القديم لايعرفه. وتصوره المؤرخون رقبة الخليج التي كانت تنتهي عند نقطة التقاء نهري دجلة والفرات، حيث لايبقى شاهد هناك،

ابلغ من شجرة ادم في جنة عدن.. هناك اصل الخليقة، ومن حافاتها التحتية بدأت اليابسة تتسع، وتأكل من اطراف الماء الف عام بعد الف عام، ولكن المياه ظلت لصيقة بالتراب، بر واسع. جوار اهوار ضحلة، وعلى كتف غابات من القصب، وعند متكأ حشد من اشجار النخيل عددها سبعة ـ ملايين على طول شط العرب، يساقط منها الرطب. غذاءً يجعل الانسان اجمل وأذكى واقوى واشد تمسكاً بالحياة.

وهناك ما هو ابلغ من الاسطورة، فقد أوحى الغرب لشاه ايران ان نفط بلاده مقبل على النضوب، وان ذلك سيدمر احلامه ببناء الدولة القاعدة لامبراطورية كبرى، عندما لايكون بين يديه مال يكفي لابتلاع جيرانه والوصول الى احلامه، وان لاخلاص له الا باكتساح هؤلاء الجيران للسيطرة على آبار النفط، وبذلك يعيد مجدداً بناء الدولة الساسانية التي يبلغ سلطانها ارض الخليج من ثغر هرمز حتى عنق شط العرب.

وقبل ثلاثة اشهر، وفي نهاية الخريف بالتحديد كان وزير الدفاع العراقي الهادىء يجلس قبالة نهر دجلة في بغداد، يتأمل صفحته المغطاة على طول الظل تحت الجسر الحديدي، باسراب من طيور آمنة.. كان عدنان خير الله رفيق صدام حسين وساعده ووزير دفاعه، قد عاد تواً من معارك جبال وسهول (سيدي كان) في الشمال ليتحدث لي عن معركة منتظرة في الجنوب.. وكان اذ ذكرها، تذكر رواية امريكية كتبها بول ايردمان عام ١٩٧٦: «لقد كان يتحدث بطريقة تغري الايرانيين لغزو العراق عبر مناطق المستنقعات في الجنوب، وقد قرأت رواية (انهيار ٧٩) فاعطتني صورة عن اطماع بلا حدود في جنوب العراق..».

كانت تلك الرواية التي تندرج في الادب الاستراتيجي التخيلي تستحث الايرانيين على غزو جنوب العراق، لان ذلك كما اوحت، يعني

فتح الطريق الى الخليج.. فليس بامكان اي غزو ايراني ان يعبر من الضفة الشرقية للخليج الى الضفة الغربية دون ان يسيطر على البر العلوي لهذه البحيرة العربية، ليكون له طريق بري، وارض تتحرك فيها الدروع، ويركض عليها المشاة.

الجنوب اذن، أية ثغرة تنفتح فيه، ستصبح طريقاً الى هذا الحلم الاسود.

وفي ربيع ١٩٨٥، جاء الايرانيون للمرة الثانية ليعبروا هور الحويزة باتجاه المنطقة التي يقع فيها قبر عزرا.. واضرحة عدد من الاولياء الصالحين على طول اليابسة الفاصلة بين هور الحويزة وهور الحّمار.. ورغم ضجيج المعركة الصاخبة، وأدواتها الحديثة المعقدة، ونيرانها التي تضطرم كل ليلة فيها، وتكاد توحي بأنها ليلة من ليالي يوم الحشر، فان هاجس الدوافع الغامضة المستوحاة من التاريخ القديم لم تكن غائبة لحظة واحدة، وكنت بين عدد من الرجال الذين يتابعون ليالي المعارك ونهاراتها..

وقفت مع الجنود على أرضٍ يقال ان النبي (عزرا) مدفون فيها.. وسددت انفي من رائحة الجثث الايرانية التي تفسّخت على بعد امتار منه. لأن احداً لم يملك وقتا لايحتاجه يجمع فيه تلك الجثث.. وبالنسبة لي: كان الهاجس السؤال: لماذا ارادوا المجيء الى هنا..؟ وهل علينا ان نقرأ التأريخ القديم لنفهم دوافع غزاة يعيشون هنا في اواخر هذا القرن مغتربين معزولين. وكأنهم يخرجون من عصور مظلمة سحيقة تدفعهم عوامل بدائية مضطربة كما نرى من صورة بعين هذا العصر وعقله.

عبر هذه المنطقة.. الممتدة من رأس مصب شط العرب وحتى اهوار الحويزة.. بدأ الغزو البريطاني للعراق، عندما اقتربت اول بارجة غازية، وانزلت عشرات الجنود قرب الفاو، بينما لم يكن لدى العراق غير

قوارب خشبية صغيرة لم تتمكن من مواجهة تلك القطعة البحرية المسلحة.. ومنذ اول يوم دخل فيه البريطانيون. فرشوا خرائطهم على ارض العراق يتتبعون الطرق المحاذية لشط العرب، كما رسمتها لهم شركة لانج Lang التي قامت بمسح نهري لدجلة والفرات تمهيدا لمجيء الغزاة.

كانت بريطانيا وهي تقرر احتلال العراق قد ارسلت سفنها من بومباي الى الخليج العربي للقيام بمظاهرة حربية عند رأس الخليج العربي، وقد وصل الفريق باريث مع مقر الفرقة السادسة الى العراق حوالي ١٤ تشرين الثاني ١٩١٤ فاستولى على الفاو الواقعة عند مصب شط العرب، وكل ما كان فيها من الابنية انذاك هو منارة للمراكب وحصن، قد استولت عليها سرية مشاة نزلت الى البر بالقوارب، وذلك بعد اطلاق بضع عيارات نارية.

وطبقا لمراجعة عسكرية تاريخية اعدّها احد الضباط العراقيين عام ١٩٥٤ كانت الحملة البريطانية، قد تحركت من البحرين بأتجاه (الفاو) يوم السادس من تشرين الاول من اكتوبر عام ١٩١٤، وعندما بلغت الفاو، اسكتت مدافع الباخرة الحربية البريطانية (اودن) البطرية التركية في الفاو.

وكان عدد الجنود البريطانيين الذين انزلوا في المدينة بحدود فوجين انسحبت من أمامهم الحامية التركية، في الوقت الذي تحركت فيه باخرة بريطانية اخرى تدعى (سبيكل) من المحمرة الى شط العرب، وانزلت مفرزة قطعت خط البرق التركي بين (الفاو) و (البصرة)، وعندما تحركت القوة البريطانية شمالاً تركت خلفها سرية واحدة في الفاو، وكان هدفها بعد ذلك هو منطقة السيبة على مسافة ستة عشر ميلا الى الشمال.

رغم ان ايران لم تقدم على مهاجمة الفاو بهدف احتلالها في فترات التحرش الايرانية ضد العراق خلال عهد الشاه، الا ان السفن الحربية الايرانية، كانت تقوم بمظاهرات بحرية استفزازية، كما جرى في كانون الثاني عام ١٩٦٠ عندما تجمعت القطع البحرية الايرانية عند مدخل شط العرب، بمحاذاة (رأس البيشة) المجاورة للفاو، لمراقبة السفن الخارجة والداخلة من والى شط العرب، وكانت تلك التظاهرات البحرية الاستفزازية تترافق مع محاولات ايران المزمنة للتجاوز على الحقوق العراقية في شط العرب.

على ان الايرانيين، سواء في عهد الشاه أو في عهد خميني صاروا يتصرفون كمنفذين مطيعين لوصية البهلوي الكبير (رضا) المتوفي سنة ١٩٢٥، التي تركها لابنه محمد رضا بهلوي (شاه ايران حتى ١٩٧٩..)، وتلخص الوصية الحلم المستحيل بقوله وهو يخاطب ابنه الشاه من بعده:

«لقد حررت الشاطيء الشرقي للخليج الفارسي من العرب، وعليك ان تحرر الشاطيء الغربي منهم».

فثمة عقدة تاريخية تمر بمراحل سبات، ومراحل يقظة، طبقاً لنوع الحاكم في ايران وطبيعته، ولم يكن من هو اكثر من الخميني مجسداً للنزعة التوسعية في تاريخ ايران كله، وصولا الى العمق السحيق لحلم اعادة بناء الامبراطورية الساسانية التي تعبر جيوشها ارض جنوب العراق لتبلغ الضفة الغربية للخليج، وتخضعها للسيطرة والنفوذ الفارسي.

واكثر المحاولات الايرانية تجسيدا لبرنامج التوسع والأحتواء في جنوب العراق قبل غزو الفاو، كانت تلك التي استهدفت منطقة الاهوار شرق نهر دجلة حيث تلتقي دوافع غامضة للاقتراب من هذه المناطق..

وهي دوافع يهودية ايرانية مزمنة ذات لبوسات معاصرة.

× × × ×

فمن مفارقات معركتي الهور الاولى والثانية ان عاملا يهوديا (روحيا) كان يبعث الحماس في عرض الافكار والحلول، لحث الايرانيين على مهاجمة هذه المنطقة من جنوب العراق. وذهب السيد لوبراني آخر سفير اسرائيلي عمل في ايران للحديث عن دوافع مشتركة كانت تتحكم بالنظرة نحو العراق، فذكر ان «المتدينين» يحترمون بعضهم حتى عندما يكونون من ديانات مختلفة، على الاقل هناك عوامل روحانية متداخلة، ويعترف لوبراني في حديث امام طلبة الجامعة العبرية في القدس قبل خمسة ايام فقط، من شروع ايران بهجومها الكبير نحو اهوار الحويزة، ان الشاه كان يتوقع هجوماً عراقياً، وان نظرتهما هو والشاه كانت متطابقة، مما دفع بالشاه الى تطوير علاقاته باسرائيل، «كان الادراك بأنه طالما كانت اسرائيل هدفا لعداوة العرب فان على ايران ان تسعى للاستعداد للمواجهة مع العراق».

وبعد ست سنوات من خدمة لوبراني في طهران لم تتغير (روحية) الدوافع الكامنة نحو العراق لدى اسرائيل وايران على السواء. ولكن هذه النظرة انتزعت بعداً اضافيا لها في مرحلة التمهيد لمعركة الاهوار الاولى (شباط ١٩٨٤) باعتبارها المعركة التي استندت الى عوامل جغرافية وروحية وسياسية اساسية جرت العودة اليها مرة ثانية عند معاودة الهجوم عبر الاهوار في ١١ اذار (مارس) ١٩٨٥، قبل اقل من سنة واحدة من شن الغزو على الفاو.

وعند بدء الحرب كان هناك من يثير في الايرانيين عقدة قديمة حول معركة نهر الكرخة، التي دحر فيها الملك الاشوري القادم من العراق ملك عيلام، وعاد برأسه مغروساً في حربة الرمح، ليخلف وراءه في مملكة

عيـلام كتابات مازالت محفورة على الواح من المرمر، تحذر اهل بلاد عيلام من معاودة التحرش بالعراق، وتحديداً جنوب العراق، «من هنا مرّ ملك العراق العظيم..».. كان هناك تذكير علني عبر وسائل الاعلام، وسري عبر اللقاءات الثنائية الموثقة بين مندوبين اسرائيليين وايرانيين، بان اي مسعى لاحتلال العراق يجب ان يبدأ بجنوبه، وبالتحديد في منطقة التقاء نهري دجلة والفرات، وفي النهاية البعيدة لشط العرب عند راس الخليج، ومع التغيرات الطوبوغرافية التي عرفها جنوب العراق، واتساع مساحات اليابسة، وانحسار المناطق المغمورة بالمياه في جنوب العراق، كانت الحملات الفارسية القديمة تركز على الجنوب لتتخذ منه طريقا لابتلاع المنطقة المجاورة كلها، في سياق الاطار الذي اسسته الدولة الســاســانية التي كانت تتحكم بهذه المناطق فترة طويلة من الزمن، وكـان التفكير السائد في عهد البابليين ان يتم الاختراق عبر الجنوب لتتوجه الارتال بعدئذ الى الشمال لاحتلال العواصم ومراكز الادارة السياسية. وقد اضيفت في العصر الحديث عوامل جديدة تتعلق بالنفط، والصراع على منطقة الخليج، والاهم من ذلك العودة الى احياء العـوامل التاريخية القديمة داخل لبوسات معاصرة كما يجسّد ذلك السلوك الايراني، والاسرائيلي معا.

فالدولة اليهـوديـة لم تكن معنيـة ببـابـل في بداية انشاء الكيان الاسرائيــلي في فلسـطين، لانهـا كانت تواجه آنذاك تحديات التكون والتهـديـد بالزوال والشعور بعدم الاستقرار، لكن الامر اختلف مع استطالة الذراع الاسرائيلية، ونجاح سياسات تمزيق الكيان العربي وشرذمته، حيث انبعثت مجددا الدوافع الكامنة، وصار الحديث عن الثأر من الأسر البابلي موضوعاً يشغل المفكرين الاسرائيليين. كما عاد رجال الدين الايرانيون يتحدثون عن الحلم التاريخي بانتزاع الزعامة

الدينية من العراقيين، والعمل على ضم المدن المقدسة فيه الى ايران للهيمنة على العالم الاسلامي كله، وتصفية حسابات تاريخية قديمة تتعلق بأمتلاك العرب للدور القيادي في حمل رسالة الاسلام ونشرها. ولذلك ارتبطت العوامل العسكرية والطوبوغرافية والاقتصادية المتعلقة بالتوجه نحو الجنوب مع الدوافع التاريخية التي ظلت كامنة عدة قرون قبل ان تطفح في السلوك المعلن للساسة الايرانيين الحاليين.

ومثلما تذكّر الاسرائيليون (أسر) بابل، واعادوا صياغة حكايته في الاغاني والاناشيد وصيغ التعبئة، للاجيال اليهودية الجديدة لاذكاء روح العداء وادامة الهواجس القديمة، فانهم يتذكرون ضريح النبي (عزرا) الذي يقع في منطقة (العزير) الحالية، رغم اختلاف المصادر اليهودية حول صحة وجوده في هذه المنطقة، حيث يذهب بعض المفكرين اليهود الى تأكيد «انه حمل الاسفار واستقر في القدس».. بينما ظلت مصادر يهودية قديمة تؤكد وجود ضريحه في منطقة (العزير) على الضفة اليمنى لنهر دجلة في منتصف الطريق بين القرنة والعمارة، ويذهب اليهود العراقيون الموجودون في الارض المحتلة اليوم، الى ان الموت كان قد داهم النبي عزرا في بلدة تدعى (زمزوم) على نهر دجلة، بينما كان في طريقه الى سوسة، ويحتل اصحاب هذه النظرية مواقع متنفذة في اسرائيل اليوم ويشتركون في صياغة الكثير من القرارات التي تتعلق بالعراق وايران .

وهم يعتقدون ان رفات احد ملوك العراق قد نُقلت الى المكان المعروف الان باسم (العزير)، كما يذكر المستشرق (الكسندر اداموف) في كتابه عن (ولاية البصرة)، وان والي بغداد احمد باشا قام في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بأعادة بناء القبر، لكن القبر تهدم عام ١٩٠٤ فأعيد بناؤه مرة اخرى.

ان مضمون الدافع الروحي التاريخي الذي يجري احياؤه الان، يتعلق بدور عزرا عندما وحّد يهود بابل وحرّم الزواج من الكنعانيين وادام الصلة مع يهود فلسطين. وبذلك فان الدعوة الجديدة تركزت على (رموزية) عزرا، وهي ترفع من درجة الاهتمام به، وبمحل قبره.

ولذلك لم يستطع احد من القادة العسكريين الايرانيين الذين نفذوا هجومي الاهوار عامي ١٩٨٤ و ١٩٨٥، اخفاء الاستماتة في الوصول الى منطقة العزير، واطرافها في ظرف لم ينف فيه الاسرائيليون حماسهم لاستعادة قبر (عزرا) او العودة اليه على الاقل مرة اخرى، في واحدة من اكثر المفارقات التاريخية اثارة، وفي اشد اعمال التغطية على النوايا السياسية والتوسعية الصرفة ضد العراق.

ظلت العين اليهودية مفتوحة على هذه المنطقة التي يعتبرها المسلمون ايضاً مكاناً مقدساً يتكامل مع حشد من الاضرحة الموجودة في الشمال منه، اهمها ضريح (علي الشرقي)، وعلى بعد ٤٥ كيلومترا منه ضريح (على الغربي) في منطقة العمارة، واضرحة عدد من رجال الدين الصالحين على الطريق بين العزير شمالاً والقرنة جنوباً وصولا الى (شجرة آدم).

وعندما جرى التفكير بمنطقة الاهوار فقد حصل ذلك بعد عدة محاولات ايرانية فاشلة لاختراق الحدود العراقية عبر القاطع الاوسط، وهي العمليات التي كانت سوريا تشجعها باستمرار اعتماداً على نظرية الهجوم(عبر اقرب الخطوط المستقيمة المتجهة نحو بغداد)، ولكن النتائج التي تمخضت عن تلك الهجمات وخاصةً بعد معارك مندلي وزرباطية عام ١٩٨٣، برهنت ان تلك الفرضية هي حالة نظرية، وأن الاختراق في مناطق متعرجة ومرتفعة وهضبية.. يكاد يكون مستحيلاً امام الدفاعات العراقية الممتازة التي بنيت فيها.

وجرى في اختيار منطقة الاهوار للهجوم الاول والفاو للهجوم الثاني في سنة واحدة، احياء اعتبارات وشواهد تاريخية قديمة ومعاصرة، القديم منها يتصل بخطط الملوك الساسانيين في مهاجمة العراق واحتلال جنوبه، والمعاصرة منها يتعلق بالخرائط التي احتفظ بها المساحون البريطانيون لتلك المنطقة، والتي وضع العسكريون الأنجليز بموجبها عدة سيناريوهات محتملة لمهاجمة العراق، مضافا اليها تجربة الاحتلال البريطاني للعراق الذي بدأ عبر الثغر الجنوبي، كما جرى تنشيط العوامل الايرانية الجديدة المتعلقة بخطة تقسيم العراق الى عدة دويلات والبدء بأحتلال الجنوب للوصول الى هذا الهدف.

في اليوم السابع من معركة الهور، كانت الارض تفوح برائحة البارود، وقد اصبحت مزيجاً من دم وشظايا واشلاء، جرى سحب عشرات الجنود والحراس الايرانيين من حافة الهور، التي غطاها غبار الدروع وملأت سماها النيران، الى موقع خلفي، بعد استسلامهم امام احدى مجموعات القوات الخاصة العراقية. كانت على وجوههم حيرة ممتزجة بالضياع، وخطر لي ان كل شيء مر ببالهم الا ان يقعوا اسرى بهذه الطريقة وتفشل وحداتهم العسكرية في البقاء في مواقعها..

كان بعضهم يلتفت الى الخلف يراقب زحف الدروع العراقية، وحركات الجنود العراقيين الاحتفالية الدالة على تحقيق النصر.

اقتربتُ من احدهم، وكان الجنود قد اعطوه ماءً وقطعة خبز صغيرة، فهمت انه لم يكن جنديا بل ضابطا نزع الرتبة عن كتفه، تحدث قليلا عن نفسه، اسمه ووحدته، ولكنه بدون سؤال قال لنا والمترجم يلاحق لكنته الدالة على انه من اصفهان:

ـ لقد اقسم شيرازي (قائد القوات البرية) ـ آنذاك ـ امام خميني ان نصل الى النجف وكربلاء، نعبر الهورين (يقصد الحويزة

والحمّار).. ثم يندفع رتل الى الشمال.. لنصل الى النجف.. قلت للمترجم اسأله.. هل صدق ذلك..؟ اجاب الضابط نعم صدقت.. ثم عاد وبعثر نظراته الحائرة بين وجوه الحاضرين.

في اليوم التالي اعلمني ضابط عراقي ان الاسير الايراني سأل وهو يُنقل من منطقة العزير في حافلات خاصة، هل ان تلك المنطقة هي العزير فعلا؟، وكان يتطلع في ارجائها بتلك العينين الحائرتين.

كان الهاجس الغامض الذي يدور في نفوس الايرانيين حول الارض التي حاولوا اختراقها يتركهم (معّومين) في لحظة الشعور بالهزيمة والفشل.. فقد اخفى قادتهم النوايا السياسية وراء حفنة كلام معظمه غامض ومشوش عن دوافع دينية مزعومة، ويبدو ان هذه الحالة التي تهيمن على بعض الايرانيين ليست جديدة، اذ ان هناك عوامل نفسية وتاريخية مزمنة تسهم في تشخيص الدوافع الغامضة للسلوك الايراني، وبخاصة في اوساط الأميين، وفي المجتمع الزراعي. ومثل هذه الدوافع تكون في العادة تخديرية مؤقتة، ولذلك لم يتردد الاسرائيليون في الحديث عن اهتماماتهم ببابل وقبر النبي (عزرا)، ثم بعد ذلك عن الفاو، امام اعضاء الحرس الايراني الذين صاروا ينضمون الى المفاوضات السرية مع الاسرائيليين لعقد صفقات السلاح، لاظهار اسباب مماثلة مع الاسباب الايرانية للاهتمام بجنوب العراق، من حيث الشكل على الاقل.

وصادف قبل معركة الهور، بأسبوع واحد، ان ذهبت الى وادٍ يقع بين سلسلة من الهضاب في الجبهة المقابلة لقصر شيرين في القاطع الاوسط من جبهة القتال، وهو عبارة عن وادٍ تمتد فيه طرق بين اطراف الهضاب ذات الحافات الصخرية، فيها حفر كبيرة لها هيئة الكهف المحفور منذ زمن بعيد، وقد سُميت تلك المنطقة بـ (وادي نجف)، اعتاد

المهـربون الايرانيون ان يتسللوا منها حتى بدء الحرب، وقد سميت بوادي نجف اشارة الى قيام عدد من المشعوذين الايرانيين بنقل جثث الموتى الايرانيين الى هذه المنطقة العراقية بعد الحصول على (١٠٠٠) تومـان عن كل جثـة مقابل وعد لذوي الموتى بنقل الجثث الى مدينة النجف الاشرف في العراق..

فما ان يعبروا الحدود ويدخلوا هذه المنطقة حتى يرموا بالجثث في اعمـاق كهـوف الوادي، ليعـودوا ثانيـة الى ايرانيين اخرين يقبلون بتجارتهم السوداء، التي عاشت سنين طويلة في اوساط الأميين الايرانيين.

لكن هذه التجارة البائرة إنحطت نهائيا منذ ايلول ١٩٨٠..

اما الموقف الثاني الذي اعادني اليه الاسير الايراني الحائر، فهو لقـاء جرى اواسط ١٩٨٢ بيني وبين الجنرال (جام) رئيس الاركان الايراني الاسبق، اعترف فيه عند حديثنا عن اساليب التعبئة الايرانية المضللة والادعاء باحقية الوصول بالغزو الى مدن العراق المقدسة.. ان هذا الاسلوب في التعبئة ليس امراً جديداً على ايران، وانه عندما تولى مسؤولية ادارة القوات المسلحة الايرانية بصفته رئيساً (للاركان) سنة ١٩٦٩ بعد الغاء الشاه لاتفاقية ١٩٣٧ حول شط العرب - اتفق مع هيئـة اركـانه من الضباط على تحريض الجنود الايرانيين وتعبئتهم نفسياً للقتال ضد العراق على اساس دفعهم للذهاب عبر الحدود الى مدن العراق المقدسة (بدون جوازات سفر) و (القتال ضد من يمنعهم عن ذلك) وشرح لي، انـه عنـدمـا تولى قيـادة الجيش بسبب وجـود الشـاه خارج ايران، طلب من ضباطه ان يقوموا بحملة واسعة في صفوف الجنود لافهامهم ان العراقيين (كفار) ولايحترمون الاماكن المقدسة في العراق. وان (الواجب الديني) يفرض على الجنود ان يذهبوا لمقاتلة العراقيين!

وقـال: كنا نعرف ان شرح المشكلة السياسية او مشاكل الحدود للجنود الأميين لن يعني شيئاً بالنسبة لهم، وانه كان لابد من تجريد الصراع بيننـا وبينكم الى الصـورة التي عاد النـظام الجـديد الان لاستخدامها في غسل الدماغ بطريقة واسعة.

ومنذ ذلك الحين، كما شرحتُ له، ولسواه من ايرانيين استعرضوا العلاقات بين البلدين، كنت اتساءل عن دلالة الربط بين اداء واجب ديني في زيـارة مدينـة مقـدسة وبين الغزو العسكري المسلح.. ولم أستـطع ان اجـرد هذا الربـط من نوايا سياسية وعسكرية للتوسع لاعلاقة لها في الجوهر بالمسألة الدينية إذ ان الامر يتعلق بأحياء باعث تاريخي مختلط العناصر.. لتحقيق هدف اسود ومستحيل هو احتلال العراق.. وهو ما كان يسعى اليه غزو (الفاو) بعد سنة من نكسة ايران في الأهوار.

ان الاغـراءات التي وجدها الايرانيون في (الفاو) هي ان تصبح معبراً في اتجاه الضفة الغربية للخليج، فلطالما سعى الايرانيون الى وضع اقدامهم على البر في الضفة الغربية ليتمكنوا من نقل اكبر عدد ممكن من قوات المشـاة البرية، لتكون اداة ضاربة في احتلال كامل الضفة، وهي تضم اقطار الخليج كلها. اذ يستحيل ان تجد ايران في قواتها البرمائية، او تلك التي يمكن ان تنقل جواً، اداة لها في تحقيق الانتشـار على البـر، ولذلك فان الفاو كانت بالنسبة لايران، الطامعة بالتوسع، والتسّيد على المنطقة، هي بوابة البر العربي كله على الخليج، ورأس الجسر الذي تمـر عليه قوات الغزو البرية، فلا احتلال بدون مشاة وقوات برية، ولا اتصال بالبر العربي الا عبر هذه الجسور التي انفتحت على الفاو وعبرها.. لنقل أكثر ما يمكن من اعداد المشاة في

اتجاه الحلم الاسود.. احتلال جنوب العراق ودول الخليج العربية.

ما ان وضع الغزاة الايرانيون اقدامهم في شبه جزيرة الفاو، حتى بدأت آلة الدعاية الايرانية تروّج لبرنامج التوسّع في اتجاه البر العربي،بهدف استخدام منطقة (الفاو) كمنصة قفز عسكرية وسياسية للمباشرة بتهديد دول الخليج العربية ومحاولات ابتزازها والضغط عليها، كمقدمة لاحداث تغييرات في الخارطة الجغرافية والسياسية للمنطقة. حيث ان ضم الفاو الى ايران لم يكن سوى اعلان عن جيرة قسرية، تفرض على دول المنطقة تلقائياً شروط جوار جبري، وكان رافسنجاني بعد احد عشر يوما من بدء المعارك سبّاقا في ايضاحه ذلك، عندما اعلن في خطبة له بطهران يوم ٢٠ شباط (فبراير) ١٩٨٦ «ان المعارك التي تدور في شبه جزيرة الفاو ستكون ذات تأثير حاسم على مستقبل منطقة الخليج باسرها وعلى سوق البترول الدولية ايضا.. اذ يبدو ان الحرب قد وصلت الى مرحلة ستحدد مستقبل المنطقة»، وكان مثل ذلك التصريح المبكر، في وقت ماتزال المعارك مستمرة، ايذاناً بالاعلان عن الاتجاهات الاقليمية لغزو الفاو، وعدم حصرها بهدف احتلال ارض عراقية وضمّها فقط.

.. وبعد يوم واحد من ذلك الاعلان، خاطب رافسنجانى الكويت والسعودية بقوله: «ان ايران اصبحت ـ جاركما الجديد ـ و ان سبل الاتصال بين العراق والخليج قد قُطعت و ان الهجوم الايراني الجديد يجب ان يكون تحذيرا لدول الخليج التي ينبغي ان تدرك الان ان لها جاراً جديداً سيبقى فترة طويلة من الزمن». وبذلك باشر المسؤولون الايرانيون في محاولة جني الثمار السياسية في النطاق الاقليمي،

والمطالبة بتعامل جديد مع جار مفروض يحاول الالتصاق بحدود الاخرين مستخدماً الغزو العسكري المتوسع

وتوالت احاديث رافسنجاني يوما بعد اخر، اذ دعا (الجيران الجدد) في الثاني والعشرين من شباط (فبراير) الى «اجراء محادثات بشأن مصير المنطقة.. اذ يجب ان نجلس معا ونناقش المشكلات»، وانتقل رافسنجاني الى التهديد المباشر في الخامس من نيسان (ابريل) ١٩٨٦ مخاطبا دول الخليج العربي «اننا نوجه لكم النصيحة.. مجرد النصيحة بعد الانذار العملي في الفاو، وسوف نتحلى بالصبر لفترة من الزمن».

ولوّح نائب وزير الخارجية الايراني حسين شيخ الاسلام في الثامن عشر من ايار (مايو) ١٩٨٦ باتساع نطاق عمل البحرية الايرانية الموجّه ضد دول الخليج العربي حيث «اصبح بامكان البحرية الايرانية التحرك بصورة اكبر وقد اصبحنا على حدود الدول الخليجية الاخرى»، وعاد خامنئي في الثاني والعشرين من آب (اغسطس) ١٩٨٦ للمطالبة باحداث تحولات في سياسات المنطقة فقال خلال جولة له بمدينة (رامسر) شمالي ايران «ان الانتصارات التي حققتها القوات الايرانية في الفاو ينبغي ان تؤدي الى تحول كبير في سياسات المنطقة»، وتحوّل التهديد الى مفردات عسكرية استخدمت على الفور واتخذت من الوجود العسكري في شبه جزيرة (الفاو) قاعدة لها، حيث اعلنت ايران في اذار (مارس) ١٩٨٧ ان لديها صواريخ ارض ـ بحر من نوع سيلك وورم صينية الصنع، وعُرف لاحقا ان بعض منصات هذه الصواريخ قد نصب على شبه جزيرة الفاو حيث اُطلقت من هناك عدة صواريخ ضد اهداف بحرية كويتية. وتبعت ذلك اعمال عدوانية ضد المواقع الكويتية في جزيرة (بوبيان)، مستخدمة الوجود العسكري البري

والبحري في شبه جزيرة (الفاو).

وعلى مدى سنتين وشهرين من وجود قوات الغزو الايرانية في الفاو، نفخت ايران في قيمة توسعها العسكري، وضخّمت من حجم اللقمة الى الحد الذي اصبح خسرانها دمارا لبرنامج التوسع الايراني على حساب العراق ودول الخليج العربي، وانحسرت الخيارات الايرانية في استمرار الوجود العسكري في المنطقة، ومعها صُممت السياسات الايرانية، بعد ان تصرّف الغزاة على اساس انهم باقون، وان وجودهم في (الفاو) هو مقـدمـة لانتشار لاحق، اهدافه مجاورة الكويت والاتصال بالحدود الكويتية، وبلوغ ميناء ام قصر غرباً، ومدينة البصرة شمالاً.

واستبدل الايرانيون اسم الفاو، واختاروا اسما جديدا للمدينة هو (الفاطمية). وربطوا المنطقة بشبكة الطاقة الكهربائية الايرانية، وقاموا باعمال استعراضية، مثل تنظيم مباريات الدوري بكرة القدم على ارض الفاو، وعقدوا اجتماعات سياسية فيها، وتناوب المسؤولون الايرانيون على زيارتها باعتبارها (ارضا محررة) ملحقة بايران، وغير قابلة للرد، وطبقا لما قاله محسن رفيق دوست وزير الحرس في مقابلة اذاعية في الرابع والعشرين من اذار (مارس) ١٩٨٦: «فاننا لم نصل الى الفاو لكي ننسحب بعـد ذلك، لقـد ذهبنا الى هناك لنبقى، وان (ام قصر) تتعرض لقصف مكثف وهي على وشك السقوط في ايدى قواتنا»، وذهب خامنئي في الثامن من اب (اغسطس) ١٩٨٦ إلى ان (ايران لها القدرة للسيطرة على اي مكان ومثال ذلك الفاو).. ووسط قرع تلك الطبول، كان ثمـة سؤال واحد يضمره العراقيون في نفوسهم طوال ستة وعشرين شهرا من احتلال الفاو.. وهم يستمعون الى احاديث الغزاة عن البقاء المطلق على ارض العراق:

- هل لدى الايرانيين فم قادر على ابتلاع اللقمة بعد ان بلغوا بها

هذا الحجم.. وكم من الزمن سيحتاجون لتصغير الفاو عندما يحررها العراقيون..؟
هذا السؤال ظل محبوساً ستة وعشرين شهرا.. وها هو الان يقُال!

انفقت ايران مليار دولار لانشاء الجسور والاستحكامات العسكرية في الفاو.. ولكن المسؤولين الايرانيين لم يجدوا ذلك مبلغا كبيرا قياسا بطموحاتهم التي سعوا اليها.

فقد اغرت تجربة العبور بالقوارب ومدّ الجسور على شط العرب - الذي ينكر الايرانيون اسمه ويستخدمون لوصفه اسم (اروندرود) - القادة الايرانيين لتكرار التجربه في اتجاه سواحل اخرى، كما يعرض لذلك الرئيس الايراني خامنئي نفسه في خطاب له بطهران في السادس والعشرين من نيسان (ابريل) ١٩٨٦ عندما ذكر «ان لدى ايران القدرة على ان تأخذ التجربة مكانا اخر في استخدام القوارب لاحتلال أراضٍ برية مثل شبه جزيرة (الفاو)». ويتجسّد في هذا الالحاح الايراني هاجس ثابت في نزعة التوسّع الايرانية للعبور في اتجاه الضفاف العربية الاخرى طبقا لوصية رضا بهلوي الماثلة في اذهان اصحاب القرار الايراني الحالي، إذ (ان الهدف هو تحرير الضفة الغربية للخليج من العرب)، والهدف الصريح بهذا المعنى هو الهيمنة على البحيرة العربية. نفطاً وماءً، وكانت الخطوة الاولى هي عزل العراق عن مياه الخليج، كمنفذ بحري، وكخطوط اتصال، وكملاحة لنقل النفط والبضائع، وتجريده من امتيازات الساحل والعمق البحري، فبعد غزو الفاو بيومين فقط اعلن خامنئي انه «لم يعد للعراق اي طريق للوصول الى البحر»، ثم صرح في الثامن والعشرين من ايار (مايو) ١٩٨٦ (ان مدينة الفاو وشبه جزيرة الفاو قد فصلتا العراق عن البحر)، وهو ما كان

قد اغوى رافسنجاني للتساؤل في الشهر الاول للغزو: (اذا كان العراق يستطيع العيش بدون البحر فليعش اذن» وبناء على ذلك جدد الايرانيون دعواتهم الصريحة «بان مستقبل العراق كله يجب ان يتحدد في ايران».

وكبرت «اللقمة».. وصارت تكتيكات السياسة الايرانية رهينة الوجود الايراني في ارض الفاو، على اساس ان هذا الوجود دائم وغير قابل للتبدل. وكما ذكر رافسنجاني في خطاب له في الرابع من نيسان (ابريل) ١٩٨٦: «انه بالامكان المحافظة على الفاو.. واننا سنبقى زمنا طويلا هنا. وان الهدف من هذه العملية كان الضغط على عنق العراق حتى يستسلم..».

وبينما غدت الفاو عكازاً تتكىء عليه السياسات الايرانية في الحرب وفي التعامل الاقليمي. فانها ايضا أغوت القادة الايرانيين لطرح اخطر شعار سياسي وعسكري منذ وجودهم في السلطة ومنذ اشعالهم هذه الحرب مع العراق،وهو ما عُرف بشعار عام الحسم، اذ افترض الايرانيون ان اي هدف بعد الفاو اصبح سهلا ويمكن الوصول اليه، سواء كان البصرة ثاني مدن العراق. او بغداد نفسها، واعلنت ايران رسميا: منتصف عام ١٩٨٦ ان ذلك العام سيشهد الحسم النهائي للحرب لصالح ايران بعد احتلال اجزاء اساسية من العراق. متخذين من تجربة الفاو مصدرا لتشغيل آلة الدعاية، وتحريك عملية التعئبة وتبرير سياسة الاستمرار في الحرب.

وحشدت ايران (٣٥٠) الف مقاتل وباشرت سلسلة هجمات شرق البصرة وشمال شرقها وجنوب شرقها ودار قتال ضروس على مدى ثلاثة اشهر في معارك (اليوم العظيم) و (الميلاد الميمون) و (الحصاد الاكبر)، ولم تتمكن القوات الايرانية من بلوغ اهدافها في الوصول الى البصرة،

رغم انها تكبدت مئات الالوف من الاصابات في اكبر معارك الحرب على الاطلاق.

وانتهى العام الميلادي في مطلع ١٩٨٧ وانتهى العام الفارسي في اذار ١٩٨٧ الذي وعدت ايران ان يكون عام الحسم منه مثقلة بجراحات الفشل عن تحقيق انتصار عسكري على العراق، بعد ان سعت لتوسيع وجودها في الفاو واستثماره عسكريا وسياسيا في اتجاه محاولات احتلال البصرة والتوسع نحو الحدود الكويتية لغرض واقع سياسي اقليمي جديد في المنطقة.

ان وجودا على مثلث من الارض تتراوح اطوال اضلاعه من ٨ ـ ١٤ كيلومتراً كان سببا للمطالبة الايرانية بالحصول على دور اقليمي اكبر واوسع، وهو الدور الذي كان طموحه الابعد هو فرض الهيمنة على بحيرتي الماء والنفط في المنطقة، وصارت ايران تردد ان قواتها موجودة على مسافة ٨ر٤ كيلومتر الى ٦ كيلومترا فقط من الكويت، وانها تراقب حركة المرور في شوارع الكويت، ولم تكن ايران تطالب دول الاقليم بمنحها هذا الدور الجديد فقط، بل تطلعت لمطالبة القوى العظمى لاتاحة الفرصة لها لتلعب هذا الدور الاقليمي طبقا لتغييرات جزئية حصلت على الارض.. بعيدا عن اعتبارات ومباديء التعاون الاقليمي وعلاقات حسن الجوار او المصالح المشتركة في الامن والاقتصاد، ولكن عبر ادوات التوسع بالقوى العسكرية، بدءاً والتلويح بها ثم استخدامها عمليا. وبذلك فان ايران ارادت ان تتخذ من الفاو منصة للقفز الى دور اكبر بكثير من الامتيازات الواقعية التي وفرها احتلال هذا الجزء من العراق، عدا عن ان الدور الذي تطالب به يصطدم تلقائيا بارادات جميع دول المنطقة كأرادات اقليمية، وبالارادات الدولية التي ينتهي عندها الدور الايراني في ممارسة الضغوط الى الحد

الذي يظهر حاجة المنطقة الى الحماية الدولية من جانب القوى العظمى، ولذلك ارتكب الايرانيون خطأين قاتلين في حساباتهم: الاول المبالغة في تقدير ما حصلوا عليه في الفاو، والثاني المبالغة في حجم الدور الممكن والمقبول والمتاح لهم في المنطقة. لأن احدا لم يُفوّض ايران للقيام بدور من هذا النوع، في أشد مناطق حساسية من حيث تداخل المصالح الاقليمية والدولية.

وكان العراق يراقب.. عين على الفاو. وعين على الطموحات الاقليمية الايرانية الشرهة التي اوحى لها احتلال الفاو انها اصبحت على مداخل مدن الخليج وعواصمه، وكان المهم في تلك الاثناء ان تتضح نزعة التوسع الايرانية واهدافها التي تتجاوز العراق، خاصة لاولئك الذين كانوا يتصورون ان ايران تملك دورا رساليا مستوحا من دعوة اسلامية صادقة، حتى اذا ظهرت انياب التوسع واتجاهاته. وبدأ ضم الارض العربية، وتغيرت اسماء المدن العربية.

وبدأت ايران تستثمر وجودها على شبه جزيرة الفاو لغرض ارادتها على خيارات الاخرين من دول المنطقة، سقطت ورقة التوت عن غول التوسع الذين ضلل البعض بوهم الدور الرسالي الذي يستمد من الاسلام روحه.

وكان احتلال الفاو سبباً في تكتيل اكبر موجات التضامن العربية مع العراق، وعزل الاطراف العربية التي تورطت في علاقات خاصة مع ايران، وسقطت دعواتها التي اوهمت بعض دول المنطقة بانها قادرة على الحد من نزعات التوسع والتهديد التي تمثلها ايران الحالية.

فقد فضح غزو ايران للفاو، والبدء باجراءات عملية لضمّها وفصلها عن جسد العراق، ما تبقى مخفياً من صورة المستعمر الجديد اذ هو كأي غزو اخر يستخدم الاداة العسكرية لفرض الاحتلال، ثم الضم

والالحـاق وتجزئة التراب الوطني، وانتزاع جزء من ارض العراق من السيادة الوطنية، ولم تكن الصفتان اللتان يصف بهما الحكم الايراني نفسه كافيتين للتغطية على مشروع استعمار الارض وساكنيها، ومع الغزو عاد التساؤل العميق عن معنى (اسلامية) ايران و (ثوريتها).. وكان من الافرازات الناتجة عن غزو الفاو وما رافقه من اعلان عن نوايا التـوسـع في اراضي العرب المسلمين، ان انفتح الباب على مصراعية للدخـول في بحث عن ماتبقى من دور رسـالي مزعـوم، وجده العرب بالملموس دورا استعماريا توسعيا.

وكـان غزو الفـاو سببـا اخـر لكي تتلاشى صورة الدور الرسالي «الاسلامي الثوري»، فالتجربة عُدّت في عيون ناظريها لااسلامية ولا ثورية، اذ ان الاسلام لاينتشر بخطة غزو عسكرية مسلحة تقوم على احتلال اراضي مسلمين اخرين، ومصادرة حقوقهم فيها، وفرض نظام سياسي عليها، وكان أفضل لمن يدعي تمثيله لرسالة روحية ان يبني تجـربتـه ويتـركها تشع مع الزمن، إن كان فيها ما يشع ليتأثر بها الاخـرون، وليحـاكونها، ويعجبون بها، ان كانت تستحق ذلك، لان (الدور الرسالي) لا يقبل مسلحاً غازياً، بل يتسرب بما يتصف به من (سماحة)، وأهم من ذلك بما يحمله من رسالة سلام.. فلا دور رسالي بدون دور سلمي، ورسـالة الاسـلام اكثـر رسـالة روحية في تاريخ الانسانية جاءت قرينةً وتوأماً لرسالة السلام، وليس لاحد أن يدعي التعبير عنها وتمثيلها وهو يُسلّح اسنانه، ويجعل اصابعه رؤوس خناجر.

الامر الاخر ان التجربة التي طُرحت للتصدير، بما تغلّفت به من رداء (روحي) كانت معـدة للتسرب الى اصحـاب الرسالة الاصليين، الذين حملوا هذه الراية وعلّموا الاخرين، بمن فيهم (دعاة تصديرها

الجدد)، كيف يتحولون الى الانتماء اليها واعتناقها.

ولايتجسّـد تصدير الاسلام في حملات تسعى لاعادة بناء الاطار الامبـراطوري القديم للدولة الساسانية ومحاكاة اسلوب الاخمينيين القدامى ومنهجهم في التوسع واحتلال العراق، والهيمنة على الخليج.. لذلك اعطى الزمن الطويل للصراع ارجحية خاصة للكشف عن الاوراق.

امـا الحـديث عن (التجـربة الثورية) فكان خليطا من التضليل والتعميـة، لان التـركيـز المجرد على هذه النقطة ينطوي على مغالطة مقصـودة ومحسوبة.. عندما يجري التركيز على ان هناك (نموذجا) ثوريا يُراد له التصدير الى العرب بقوة السلاح وادوات الغزو.. مع ان الامر غير ذلك.. وابعد من ذلك.

فالايرانيون الحاليون هم الاقل ثورية من العرب، ومن العراقيين خاصةً، وقد تأخروا واحدا وعشرين عاما عن تغيير اوضاع بلادهم، وازاحة (الطاغوت) نسبة الى اهل العراق، وتأخروا سبعة وعشرين عاما عن اهل مصر، ولم تكن كل خسائرهم عشية اسقاط الشاه، التي نُفخ فيهـا بُولغ في عددهـا، اكثر من تضحيات العرب في معارك يوم واحد بوهـران في الجـزائـر، وفي انتفاضة (الجسر) ببغداد، وبمقاومة يوم الارض في فلسـطين، فالعرب هم اهل الثورة والانتفاضة، وقد علموا هؤلاء الايرانيين، كيف يمسكون سلاحا، ويكتبون درسا عن (الثورة) في المخابي السرية، ولو لم تنفتح امامهم ابواب معسكرات عربية هنا وهناك، لم يكونوا ليتنفسوا هواء الحرية ويحلموا به، فالعرب اهل الثورة ومعلمـوهـا، وهم الاعرق، وهم المصدر فيها، والاكثر خبرة ودراية في معضلاتها، والاكثر استعدادا للتضحية في دروبها، مضافا الى ذلك، ان التجربة الايرانية التي ما تزال تتخبط بما يُعرف بالطفولة السياسية

ارادت ان تنـاطح تجـربة عربية متراكمة الخبرة تجاوزت معضلات الطفولة في العمل السياسي.. وكبرت عليها منذ زمن طويل..

اما بالنسبة الى العراق فان تصدير الثورة كان مفارقة حقا، لان اول نسمة تنفسها الايرانيون من هواء الحرية أتت اليهم من العراق، يوم كان اهله، يثورون لتغيير اوضاعهم قبل واحد وعشرين عاما من مجيء (الصحوة) المتأخرة في ايران، فيرى المحبوسون المغلوبون على امرهم من شعوب ايران في ثورة العراق مثالا اعلى، وفي رجالاتها رموزا ونجوما عاليات، وتجاوز العراق في زمن اقصر مما يحصل لايران اليوم، مرحلة الطفولة في التجربة السياسية وافرازاتها الدموية، واستقرت الثورة في العـراق على نموذج ناضج عميق منذ عشرين عاما، ليس في برنامجه التوسع وفرض الارادات على الاخرين من حوله، لكن الحكام الجدد في ايران توهموا كثيرا فلم يُميّزوا بين النظام الذي سبقهم في ايران وتجربة العـراق التي تنـاطحوا معها، عندما اشاعوا وتوهموا ان الاصطدام بينهم وبين العراق، ثم المباشرة بغزو اراضيه، ومنها الفاو، سيقويهم، لانهم (يعيشـون حالة فوران شعبي)، وتنـاسـوا ان التجـربة التي اصـطدمـوا بها ليست من بقايا (مدرسة الصالونات) التي نازعوها وتنازعوا معها في ظل حكم الشاه، وان العرب تجاوزوا هذه المدرسة في السلوك السيـاسي منـذ الثورة المصرية، وان التجربة العراقية التي اصطدموا بها هي تجربة ثورية شعبية، وان قادتها ليسوا من اولاد الباشوات ولا من احفاد الطواويس، بل انهم من عامة الناس، يبنون تجربتهم بقوة وآمال الذين لايفسدهم استرخاء الحكم واغراءاته، وان مناعتهم امامها جعلتهم في حالة توهج ثوري دائم.. فاذا اصطدم بهم احد تفجرت فيهم قدرات لايراها من يجرّب فرض التحدي عليهم، كما فعل الايرانيون ففوجئوا بها عندما ارتكبوا خطأ المباشرة في استفزاز

العراق والعدوان عليه ثم غزو أراضيه الوطنية، كما حصل في الفاو.

× × ×

لقـد ترك العراق تفاعلات الغزو النفسية والسياسية والاعتبارية تعتمـل في طروحات التوسع وصياغاته لتبلغ مداها، وتتضح بالكامل صورة المستعمر الجديد الذي يهدد العرب ويطمع باراضيهم وحقوقهم.

وترك العراق ايران تبالغ في حجم «اللقمة».. لانه منذ اليوم الاول كان يعد لدحسها ثانية في الفم الايراني..

# الصراع الدولي على الفاو في القرن التاسع عشر

حاز ضابط بريطاني في الخامسة والثلاثين من عمره على اعجاب المفاوضين الأتراك الذين قابلوه فوجدوا فيه شخصا ذا خبرة مزدوجة في الدبلوماسية وهندسة الاتصالات البرقية، بعد أن وصل استانبول في خريف ١٨٦١ ليبدأ جولة طويلة من المفاوضات مستخدما مادرسه في ملفات الخارجية البريطانية، فعرض بهدوء فكرة مبسطة، كان يعرف ان الاتراك سيتلقفونها بشغف.

قال الضابط البريطاني: ان حكومتي تملك افضل شبكة للاتصالات البرقية في العالم اليوم.. وهي تعرض على دولة صاحب الجلالة السلطان العثماني خدماتها لتأسيس خط تلغرافي بين القسطنطينية والفاو في جنوب العراق، وسنتمتع معاً بامتيازات هذا الخط..

وتلقف الاتراك، تلك الفكرة، وافقوا عليها من حيث المبدأ، بينما بذل البريطانيون بدهاء دبلوماسي صبور جهوداً استمرت اربع سنوات متصلة لتنفيذ اخطر مشروع للاتصالات، كان في حقيقته مقدمة للاحتلال البريطاني للعراق.

لذلك يعتقد كثير من الناس، ان الايرانيين نفذوا عند غزو الفاو سنة ١٩٨٦ خطة بريطانية قديمة تعود الى مائة سنة مضت، وليست هذه الفكرة المتداولة ببعيدة عن الحقيقة، فالعراقيون شديدو الحساسية في النظر الى الطريقة التي يتعامل بها الاخرون مع الفاو.. لان هذه المنطقة كانت مفتاح احتلال العراق، ومنفذ دخول الغزاة في تاريخ العراق السياسي الحديث، وبدون الفاو لم يكن بوسع البريطانيين ان يتربعوا

على امبراطورية تبسط نفوذها الى الهند شرقاً، والبحر المتوسط غربا، ومضيق هرمز جنوبا، وبدون هذا المفتاح ليس لأحد القدرة أن يهيمن على اتصــالات العالمين القديم والجديد، ليفرض سيطرته على خطوط التجارة الهندية ـ الاوربية في العالم القديم، وعلى خطوط الملاحة ونقل النفـط في العــالم الجديد.. فالفاو مفتاح لاهداف أخرى اكبر.. وهي ليست وليست بحد ذاتها هذا الهدف الكبير.

فمنــذ عام ١٨٨٦ (قبــل مائــة عام من غزو ايــران للفــاو)، وجد البريطانيون ان هناك مبررا قويا لاحتلال العراق، وهو السيطرة على نقطة في جنوبه، لم يكن عدد سكانها يزيد على الفي انسان، وهي الفاو، فبــدأ الاستعمــار القديم نهاية القرن التاسع عشر التمهيد لاحتلال العراق، وايجاد قاعدة للاتصالات والمنافع التجارية في المنطقة كمقدمة لاحتــلال البــلاد كلها والهيمنة على ثرواتها النفطية الكامنة، وجرى العمل على مستويين من الحركة، الاول:ـ

البدء بما عُرف في العقد الثامن من القرن التاسع عشر بعملية مسح الانهار والممرات بواسطة فرق استكشاف تجسسية تجمع المعلومات التي تُوظف لاحقا لعبور القوات العسكرية واختيار مراكز تموضعها، والثاني:ـ القيام بعملية دبلوماسية هادئة، وصبورة، وماكرة مع الدولة العثمــانيــة لاقنــاعهــا بايجاد قاعدة قانونية مشتركة تحكم المصالح المتبادلة في التجارة وطرق المواصلات.

وكانت البداية، اقناع الباب العالي في تركيا، بتأسيس مركز برقي في الفــاو، واستمــرت المفــاوضــات من اجله (اربع سنوات)، وقد ابتلع العثمــانيــون الذين كانــوا يحكمــون العــراق، ذلك الطُعم، فأتــاحوا للبريطانيين تأسيس موضع قديم (مدني) في الفاو، مهّد السبيل بعدئذ لايجاد موضع قدم عسكري مباشر فيها.

فالفاو كانت مفتاح احتلال الخليج والشرق العربي، وبضمنهما ارض العراق.

وفي المرتين اللتين تعرضت فيهما الفاو للاحتلال العسكري لم تكن فيها قوات كبيرة، فالغزو الايراني سنة ١٩٨٦ اخترق مواضع سرايا في جبهـة لواء مشـاة عراقي واحـد يمسـك بأفق يمتد واحداً وعشرين كيلومترا ولاتوجد خلفه مواضع دفاعية متتالية، وكان عدد المهاجمين يزيـد اربعـين مرة على عدد المـدافعـين عن الفـاو، بينمـا كان عدد العسكـريـين من قوة الاحتـلال التـركي في الفـاو عنـد نزول القوة البريطانية في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٤، (٤٨) عسكريا فقط هم: ضابـط تركي برتبـة (يـوزباشي) وخمسة واربعون جنديا من المشاة وضابط صحي مع ضابط اخر برتبة (بمباشي) يسكن مدينة البصرة، وكـانت هنـاك بطاريـة مدفعيـة واحدة من بقايا القرن التاسع عشر موضـوعـة في بقايا قلعة الفاو التي بنيت سنة ١٨٨٦ على بعد ستة كيلومترات ونصف عن الميناء، اما المرفأ نفسه فكان يدُار من قبل ضابط من البحـريـة التـركية مهمته جمع الضرائب عن عمليتي الاستيراد والتصدير اللتين تمران بالميناء.

اطلقت البطارية التركية قذيفتين او ثلاثا، ثم سكتت، وبدأ الجنود البـريطانيون بالنزول في الميناء، مع انه كان في الامكان سحق القوة البحـرية البريطانية المكونة من (١٥٠) جنديا بعد النزول في الفاو، بتـدمير الباخرة البريطانية، وغلق طريق العودة خلفها، ولكن ذلك لم يقع، مع ان خطوات الجنود البريطانيين في الفاو كانت هي البداية في عهد احتلال عسكري شامل للعراق. وقد سبق الجنود البريطانيين الى العـراق موظفـون مدنيـون وضـابـط اتصالات برقية وضباط كمارك بريطانيون وهنود، اوجدوا قاعدة عملية للاحتلال العسكري اللاحق،

بعد ان قاموا بجمع صبور للمعلومات حول القوة المدافعة عن الفاو، ووضعوا خطة مفصلة للنزول في الفاو، والاندفاع بعد ذلك في الطريقين البريين اللذين يصعدان الى البصرة، الى جانب استخدام شط العرب ممرا مائيا لعبور القطع البحرية البريطانية.

وكـان عدد موظفي دائـرة البـرق البريطانية لايزيد على عشرين شخصا، من الاداريين والفنيين، يراقبون وينظمون حركة الاتصالات الدولية، ويرصدون حركة البريد الداخل والخارج الى العراق بمعدل ١٠٠٠ رسالة شهريا في الذهاب، ومثلها في الاياب.

وكانت مراكز الادارة التركية في (قضاء/الفاو) تتكون من قائمقام يسـاعده عشرون موظفا بضمنهم ضابطان، وعدد من افراد الشرطة المدنية، يتخذون من السراي مقرا لهم، وفي جانب اخر من القضاء كان هناك مركز كمارك تركي، ومركز لادارة المرفأ، ولم يزد عدد السكان في القضـاء كله والقـرى المحيطة من منطقة المعامر شمالا وحتى رأس الخليج جنوبا، عن الفين وخمسمائة، وقد عُدّ مرفأ الفاو آنذاك اكثر موانيء الخليج ومرافئه أمناً في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لخلوّه من القراصنة واللصوص.

بدأ البـريطانيون، منذ عام ١٨٦٢ بوضع خططهم لاحتلال الفاو والعبـور منهـا في اتجـاه البصرة، اما الايرانيون، فكانت محاولاتهم لاحتلال البصرة في القرن الثامن عشر تقوم على العبور من جهة المحمرة في اتجاه شط العرب، وصولا بخط مستقيم من شرق البصرة الى مركزها، كما حصل سنة (١٧٧٦ ـ ١٧٧٩) في ١٨٦٢ وضع البريطانيون خرائط مسـح شاملة لشط العرب من البصرة شمالا الى رأس البيشة شمال الخليج العربي جنوبا، وقد انجز تلك الخرائط ضابط بريطاني يدُعى F. Jhons ، في الوقت الذي كانت الدبلوماسية البريطانية تتفاوض مع

الادارة التـركيـة منذ (١٨٦١) لاقناعها بتأسيس مركز تلغرافي تابع للشركـة الهندية الاوربية في الفاو يُدار بصورة مشتركة بين الاتراك والبريطانيين، وكان الهدف من ذلك تحقيق اتصال بين اوربا والهند، وربط بغداد بالخليج، بعد مد خط تلغرافي بري من بغداد الى القرنة طوله ٣١٢ ميـلا، ثم يتم وصل الخط بخط اخر مقابل من الهند الى الخليج، وقد وجدت الفكرة قبولا لدى الاتراك الذين تحمسوا لايجاد خط برقي بين الفاو والقسطنطينية، وهو ما أنجز فعلا في كانون الثاني ١٨٦٥، بعد ان كان الخط البرقي بين الفاو والقرنة قد أنجز في نهاية اذار (مايس) ١٨٦٣، وتضمن المشروع بناء خط تحت مياه البحر من الهنـد الخـاضعـة للادارة البريطانية الى (الفاو) الخاضعة للادارة التركية،ولم تقتصر اهمية (الفاو) باعتبارها مفتاحاً للدخول الى، اذ انها كانت المعبـر والممـر ونقـطة التوقف للسفن البريطانية المتجهة نحو المحمرة.. ولذلك لم تتساهل الحكومة البريطانية مع الاتراك في كل ما يتعلق بالفاو، وقد هدد البريطانيون بتعيين قنصل في الفاو ما لم تكف الجكومة التركية عن تقييد الملاحة البريطانية في المنطقة، وقد ارسلت الحكومة البريطانية عام ١٨٩٩ سفينة حربية في الفاو في تظاهرة للقوة ضد القيود التركية.

ومنـذ ذلك الحين احتلت الفاو مركز القلب في التقاء خطوط البرق الهندية الاوربية عبر أراضٍ خاضعة للسيطرة التركية، في واحدة من اكبـر الاتفاقات الدبلوماسية التساومية بين القوى الدولية المتنازعة نهاية القرن التاسع عشر، والتي وجدت ـ كل من زاويتها ـ ان (الفاو) هي عقدة اتصالات حيوية تصلح ان تكون ساحة للتجاذب والتنازع والتساوم بادواته الدبلوماسية والتجارية.. ثم العسكرية.

فقـد افرزت الجيوبوليتكا في تاريخ العلاقات الدولية مجموعة من

المدن والمواني‌ء والمناطق التي لاتمثل موضوعا للصراع، ولكنها تشكّل ساحة له كما هي الفاو، فهي ليست هدفا بحد ذاته، ولكنها معبر في اتجاه هدف، او خط دفاع عن هدف سوقي كبير، وتُوصف بانها (هدف وسيـط)، كما هي شبه جزيرة سيناء كنموذج مماثل، اذ انها ساحة للصراع اكثـر ممـا كانت موضوعا للصراع سواء بالنسبة للمصريين القدامى في عهد رمسيس الثاني أو بالنسبة لمحمد علي وطموحاته في بناء الدولة الموحدة من الشام الى مصر، او في الصراع العربي الاسرائيلي المعاصر.

فكل الغزوات التي تعرّضت لها مصر اتخذت من شبه جزيرة سيناء معبرا لها، كما ان رمسيس الثاني، كان يجد في سيناء معبراً يصل به الى طموحاته في الشام، واقترن ذلك مع رحلته السنوية التي صارت تُعرف لاحقا بموسم شم النسيم، كما وجد محمد علي في سيناء معبره نحو فلسطين والشام لبناء الدولة القوية الموحدة التي كان يطمح بها. فسيناء معبر، وخط دفاع عن مصر، وعمق لابد لها منه للمناورة وحماية العمق المصري بأكمله، وكذلك الامر بالنسبة لشبه جزيرة الفاو، فهي معبر وخط دفاع، وساحة تُتخذ منطلقا للاتجاه نحو اهداف كبيرة في الصراع على المنطقة، سواء اتجهت جنوباً نحو الخليج وخطوط ملاحته ومـراكـز ثروتـه النفطية، او اتجهت شمالا نحو ثاني مدن العراق.. البصرة. ولاتقل المواضع الوسطية من هذا النوع اهمية عن الاهداف الكبـيرة في الصراعـات الاقليميـة والدولية، لانه بدون السيطرة على الموضع الوسيط، لايؤُمنّ العمل اللاحق في اتجاه الاهداف الاكبر، ولكن اهميـة (الموضع الوسيط) تكمن في استخدامه وسيلة ومعبرا.. لا في التوقف عنده، والمكوث فيه.

لذلك فان اي هجوم في اتجاه منطقة وسيطة ليس هدفاً بحد ذاته،

والبقاء في نطاقه يعني مكوثاً في ارض موت مغلقة، وهو ما حدث للقوات الايرانية، التي اختارت مهاجمة شبه جزيرة الفاو كخط دفاعي اول عن العراق، يجري اقتحامه والسيطرة عليه، من اجل ان يُترك في مرحلة اخرى خلف قوات الغزو العابرة نحو البصرة شمالا وام قصر ـ الطريق الدولي ـ العراق ـ الخليج ـ غرباً. وعندما لم يتحقق ذلك، بفعل قوة الصد العراقية، تحددت ايضا النتائج المترتبة على احتلال شبه الجزيرة، وكان يمكن الانتظار لبضعة اسابيع لاستثمار الوجود العسكري المتحقق فيها للقفز بأتجاه الاهداف الحقيقية للغزو، ولكن عندما فشلت هجمات «عام الحسم» منذ اواخر ١٩٨٦ وحتى نهاية الشهر الرابع من عام ١٩٨٧ دون تجاوز حدود المثلث المالح المغلق في شبه الجزيرة، كان على ايران ان تراجع خياراتها، ولو كانت قد اتخذت قراراً طوعياً بالانسحاب من شبه الجزيرة، لكانت اخرجت عنقها من مثلث مطبق لايصلح بحد ذاته ان يكون الهدف التاريخي للحرب، ولاتتجاوز اهميته انه معبر، وخط دفاع اول، جرى دفعه عشرين كيلومترا الى الخلف، عدا عن نتائج عرضية اخرى، منها تحديد قدرة البحرية العراقية على المناورة في خور عبدالله ورأس الخليج، والسيطرة على منطقة المصب من شط العرب. وتوفير منصة على الارض للقيام باعمال التهديد والابتزاز السياسي ضد دول الخليج.

لقد ترك البريطانيون في الفاو اقل من مائة جندي واندفعوا بالالاف التي وصلت تباعاً في اتجاه الاهداف الكبيرة عند غزو العراق واحتلاله بعد سنة ١٩١٤، ليصلوا البصرة والكوت وبغداد، اما الايرانيون فقد خلطوا بين اهمية الفاو لذاتها. واهمية الفاو كموضع وسيط باتجاه الاهداف السوقية للغزو، وكان ايقاف القوات العراقية لحركة امتداد الغزو وتوسعه انجازا بحد ذاته لانه ارغم ايران على عدم التمتع

بالمكاسب المترتبة عن احتلال شبه الجزيرة.

ومنذ اليوم الاول لانتهاء معارك الفاو ١٩٨٦، كانت صورة الصراع على هذا الجزء من ارض العراق، وفيه. قد تحددت، وعالجت القيادة العراقية النتائج المستخلصة من المعركة بموجب المبادىء التالية:

١. ان العراق بحاجة الى زيادة عدد افراد قواته المسلحة حتى لايضطر الى حرمان نقاط حيوية في الجبهة الواسعة للحرب، (١٢٠٠) كيلو مترا، من وجود عسكري كثيف، وحتى لايتكرر ما حصل في الفاو. واصدر الرئيس صدام حسين قرارا بزيادة عدد افراد الجيش بحيث تستطيع عدة فيالق ان تقاتل مرة واحدة على عدة جبهات دون الحاجة الى تحريك احتياطات القيادة العامة.

٢. اجراء مراجعة شاملة لغزو الفاو من جوانبه المعلوماتية والفنية والعملياتية، وفي اطار التداخلات الدولية والاقليمية والاقتصادية التي رافقته، وتمخضت عنه، دونما اى استعجال حتى تتوفر ظروف اخرى، يحدد فيها العراق توقيتات المعاودة الى القتال في هذه المنطقة، ليس بهدف تدمير قوة الغزو فقط، بل بهدف تحرير المنطقة بصورة كلية وشاملة.

٣. مراقبة السلوك الايراني بعد الحصول على هذا الجزء من ارض العراق، وترك افرازات هذا السلوك تتفاعل في النطاقين الاقليمي والدولي، لتعرية اهداف الغزو، واتجاهات التوسع الاقليمي الايراني بعد احتلال الفاو.

اما ايران التي استعارت خطة بريطانية وُضعت قبل مائة سنة، فقد اصطدم برنامج غزوها للعراق بالفرق الحاصل خلال مائة سنة من المتغيرات المحلية والاقليمية والدولية، فانحشرت قوات الغزو في مثلث وسيط، قيمته انه منصة للقفز الى هدف سوقي كبير.. وعندما لم

تحصــل ايران على الهدف، صارت تقلّب تراب الفاو المالح.. وتعاين الارض الرخوة المخادعة، لعلها (تصلح) لتأسيس وجود سياسي مجتزأ من ارض العراق.. لكن احداً لم يأت ليؤسس ولاية في بحر الملح، ولم يبق غير الانتظار.. لاخطوةً تصلح الى الامام.. ولااحد يستطيع في ايران ان يقرر خطوةً طوعية الى الخلف.

# صفقة
# دولية ثلاثية مهدت للغزو

اشترك اكثر من طرف في عمليتي التضليل والتعمية اللتين سبقتا الغـزو الايراني للفاو، الذي ابتدأ ليلة التاسع على العاشر من شباط (فبراير) ١٩٨٦، وتراوح ذلك بين ترويج صور مزوّرة ملتقطة بالاقمار الصناعية، وبث سلسلة من التقارير والمعلومات المحرّفة، وشن حملة اعلامية مركبة بهدف احداث تشويش على صورة الوقائع المحتملة، وهي فعاليات اكبر من القدرات الايرانية المتاحة، ويعزز هذا الرأي ان عام ١٩٨٥ شهد نشاطا سريا مكثفا اشتركت فيه اسرائيل على نطاق واسـع، لتحسـين التجهيـزات العسكرية الايرانية، وتقديم المشورة والخطط وبدائلها، كما ان عام ١٩٨٥ ومطلع ١٩٨٦ شهد سلسلة من لقـاءات سريـة ايرانية اسرائيلية امريكية انتهت الى عقد الصفقات الشهيرة التي تداخلت فيها قضايا الرهائن المحتجزين في بيروت مع تسليح ايران من قبل الولايات المتحدة واسرائيل، وشهد عام ١٩٨٦ ذروة الحصار الذي تعرض له النفط العربي بهدف تدميره كمصدر في تكوين الثروة العربية وادامتها، عندما حدث الانهيار المدمر في اسعار النفـط، وهـو امـر اقترن بتكثيف الضغط الايراني على دول الخليج النفطية سياسيا وعسكريا ودعائيا.

كانت الانظار منذ خريف ١٩٨٥ تتجه صوب جنوب شرق البصرة وشرق دجلة في الاهوار، حيث تجمعت تحشدات عسكرية ايرانية كبيرة استمـرت تنـاور هناك على مدى خمسة اشهر، قابلتها استعدادات عراقيـة واسعـة لخـوض معـركـة كبـيرة، جرى فيهـا اعادة تنظيم

طوبوغرافية ساحة المعركة، والقيام بحملة كبيرة لقطع القصب، ومنع استخدام كثافتة في المنطقة غطاءً لاى تسلل ايراني، واعادة تنظيم شكل الارض بحيث تتهيأ ساحة القتل الواسعة التي تجعل المسافة بين الرامي والهدف واضحة وجاهزة.

كانت ست سنوات قد مرت على الحرب دون ان تفكر ايران بغزو العراق من منطقة الفاو. رغم انها حاولت اختراق الجبهة العراقية من نقاط متباعدة على طولها الممتد الى حوالي (١٢٠٠) كيلومترا، واكتفت القوات الايرانية المتموضعة خلف مواقعها في جزيرة (عبادان) المقابلة للفاو، بالقصف المدفعي وعمليات القنّاصة ومحاولات التسلل المحدودة في اتجاه منطقة الفاو، ولذلك فان اختيار هذه المنطقة هدفا للغزو والاحتلال كان يعود الى امرين..

الاول: هو وجود تشجيع من (اطراف ما) على اختيارها لاعتبارات سوقية وتكتيكية تخص طرفي النزاع، والنطاق الاقليمي المحيط بهما.

الثاني: الفشل الايراني المتلاحق في مواقع الجبهة الاخرى، والحاجة الى اختيار موقع جديد لتحقيق الاختراق الذي فشل طوال السنوات الماضية.

لماذا الفاو بالابعاد الموضعية؟ ومن الذي نقل معلومات مفصلة الى ايران عن المنطقة ونوع القطعات العسكرية الموجودة فيها؟، وامكانية اختراقها؟

كان اهم جزء من الاتفاقات السرية الممهدة للصفقة الثلاثية بين وايران واسرائيل واطراف في الولايات المتحدة هو الحصول على خدمة استخبارية ومعلوماتية عن القطعات العراقية، ومواقع تحشدها، وعن طوبوغرافية العراق والتغيرات التي تعرضت لها، ولذلك تلقت ايران طوال الفترة من ربيع ١٩٨٥ وحتى مطلع ١٩٨٦ سلسلة من المعلومات

والصور الملتقطة بالاقمار الصناعية التي تعرض درجات التحشد على الارض، وحركة تنقل القطعات، وتشجع على اختيار الفاو كواحدة من نقـاط الاختـراق الممكن لهجوم يقع في ظرف جوي محدد وفي منطقة لاتوجد فيها قطعات عسكرية كبيرة، بينما كانت اطراف اخرى تروّج في المقـابـل صورا مزورة ملتقطة بالاقمار الصناعية لتوحي للعراق بان الهجـوم الايـراني المـرتقب سيقع على بعد يزيد عن المائة الى المائة وعشرين كيلومترا الى الشمال من مدينة (الفاو) في اتجاه شرق البصرة وشرق دجلة، وقد جرى تمرير هذه المعلومات المزيفة الى العراق بهدف التضليل وتحويل الاهتمام بعيدا عن الفاو.

وقـد اعـادت المخابرات الاميركية اداء الدور نفسه ضد العراق. عندما سرّبت الى صحيفة الواشنطن بوست يوم ٢١/٦/٨٨ معلومات مفصّلة عن خطط العـراق العسكـريـة لتحرير جزر (مجنون) طبقاً للمعلومـات المستمدة من الاقمار الصناعية، وبهدف تنبيه ايران الى خطط العراق التفصيلية في هذا الاتجاه، بما في ذلك الاشارة الى احتمال توغل القوات العراقية مسافة ٣٠ ميلاً في البر الايراني.

وكـان (بـوب وود وارد) قد كشف في كتـابه (النقاب) (VEIL) عن الحروب السرية للمخابرات الامريكية ان جزءا من صفقة (ايران غيت) تضمن صراحة تزويد ايران بمعلومات مستمدة من الاقمار الصناعية لمساعدتها في الحرب ضد العراق، وكان الرجل الذي تابع تنفيذ امراً سريـا بهـذا المعنى هو (مكمـاهـون) نائب مدير المخابرات المركزية الامـريكية عندما كان (وليم كيسي) مديرا لها، ووصف تزويد ايران بصور الاقمار الصناعية أنه محاولة لاثبات حسن النية نحو ايران، في الوقت الذي تم فيه شحن الف صاروخ من نوع (تاو) في اول شحنة اسلحة تنفذ في اطار الصفقة الايرانية ـ الاسرائيلية الامريكية.

عندما وقع الهجوم على الفاو في شباط (فبراير) ١٩٨٦، اختار ليلة ممطرة عاصفة، تواصلت الامطار بعدها على مدى ثلاثة ايام، وهو امر اتاح لقوات الغزو التسلل، وبناء رأس جسر على الطرف الغربي لشط العرب، ثم توسيعه، ومد عدة جسور عائمة مبنية من «الفلين» الاسفنجي، واربطة حديدية.

وجاء اختيار المنطقة على اساس انها منطقة مليئة بالمستنقعات المائية، وتتسم ارضها بكونها رخوة متخلخلة لاتسمح بحركة الدروع عليها، ويتعذر في مناطق عديدة منها وجود ارض صلدة تصلح لمسير المشاة. حيث يضطرون الى الغوص بثلث اجسامهم داخل ارض موحلة مزيجة من طين وملح، وكان الهدف من تحويل القتال الى تلك المنطقة هو تحييد قوة الدروع العراقية التي تمتلك تفوقا نوعيا ساحقا على ايران.

على ان عملية التضليل وتحويل الانظار عن اتجاه الغزو الايراني ترافقت مع تشجيع أيران على مهاجمة جبهة عريضة لايوجد فيها غير لواء مشاة واحد هو اللواء (١١١)، المنتشر على أفق يزيد طوله على عشرين كيلومتراً، وقد شرح السيد الرئيس صدام حسين ذلك الموقف بعد ثلاثة ايام من تحرير (الفاو بقوله: «لقد اخذوا الفاو عندما كان فيها لواء واحد اسمه اللواء (١١١) على جبهة (٢١) كيلومترا، ولم يهاجموا جبهة اللواء كلها وانما هاجموا جبهة سرايا في فوج ثم اندفعوا خلفها، ولم تكن توجد دفاعات نهائيا خلف هذا اللواء»، ثم توسّع الخرق وعبرت الى الضفة الغربية لشط العرب قوات غازية يزيد عدد افرادها على (١٥٠) الفا.

وبعد ان وقع الغزو باربع وعشرين ساعة استمرت العديد من وسائل الاعلام الغربية لتوحي بان هذا الهجوم هو هجوم المناورة

الثانوي، وان الهجوم الكبير الذي أُعد له لمدة خمسة اشهر متصلة سيقع في منطقة الاهوار وشمال شرق مدينة البصرة، في الوقت الذي واصلت فيه المصادر الرسمية الاميركية التأكيد على ان هجوم الفاو هو هجوم ثانوي، وان هجوماً كبيراً آخر سيقع في الاهوار.

وكانت اول اشارة على وجود هجوم ايراني رئيس في اتجاه منطقة الفاو هو اسقاط القوات العراقية لطائرة مسيّرة قبل اربع وعشرين ساعة فقط من موعد الهجوم ليلة ٩/ ١٠ شباط (فبراير) ١٩٨٦، وكانت مهمة تلك الطائـرة التقـاط صور للمواقع العراقية في جبهة الفاو، ولم يكن مستبعدا ان تلك الطائرة هي من نوع (دورن) اسرائيلية الصنع وهو جيـل مشـابـه لطائـرة اسرائيليـة مسيّرة اخرى اسقطتها الدفاعات الارضيـة العراقية بداية عام ١٩٨٨ في القاطع الجنوبي من الجبهة وعلى مسافة غير بعيدة عن المكان الذي أسقطت فيه الطائرة المسيّرة قبل اربع وعشرين ساعة من بدء غزو الفاو.

ورافقت عملية المناورة الموضعية التي تمت بتسهيلات اسرائيلية دولية واضحة، محاولة اسرائيلية لاستخدام اجهزتها السرية في خلق سحابة دعائية يُسهل وجودها تحويل الانظار عن مكان الهجوم واتجاهاته.

فوسط بحر من الاتهامات الموثّقة الموجهة الى ايران حول علاقاتها السرية مع اسرائيل التي بلغت ذروتها نهايات عام ١٩٨٥، قبل شهرين من موعـد الغزو الايراني الذي وقع على الفاو، عمدت اسرائيل، عبر اجهـزتها السرية، الى تسريب معلومات مُضللة بهدف التعمية وخلط الاوراق على صورة الاجماع الذي ساد حول قيام تحالف سري بين ايـران واسرائيـل يُمهد لعملية عسكرية كبيرة ضد العراق. اعتمدت المصـادر السرية الاسرائيلية اسلوباً مماثلاً لما كانت قد اتبعته عند

التمهيد للهجوم الايراني في منطقة الشوش وديزفول ربيع ١٩٨٢ عندما قامت بتسريت معلومات مشوشة في الصحافة البريطانية للتشكيك بالمواقف العراقية، واثارت مسألة لم تكن قائمة من حيث الواقع هي (ان العراق قدم عرضا سريا لايران قبل بموجبه التنازل عن كامل شط العرب مقابل التوصل الى وقف اطلاق النار)، وكان يُقصد من ذلك التقرير اثارة البلبلة لدى اصدقاء العراق، وفي المنطقة العربية، وامام الجمهور العراقي بعد ان يتم تسريب التقرير الى الاذاعات الناطقة بالعربية الموجهة الى العراق والاقطار العربية الاخرى.

اما عشية غزو الفاو - فقد دفعت الاجهزة الاسرائيلية الى نشر تقرير مزعوم عن قيام اسرائيل بتزويد العراق بمعدات عسكرية في اطار تقارير التضليل Misleading information التي تُستخدم في المراحل الحساسة كجزء من حملات الارباك والتشويش ومنع التركيز في صورة موقف لايراد له ان يتضح، وقد اختارت الاجهزة السرية الاسرائيلية نشرة (الفورين ريبورت) مكاناً لتمرير تقريريها، الاول عند بدء هجوم الفاو، والثاني بعد ثلاثة اسابيع. وتزعم تلك المعلومات (ان العراق بدأ يتلقى تسليحا من اسرائيل بسبب مخاوفه من تسليح الاتحاد السوفيتي لايران وازدياد الضغط العسكري الايراني)، وصولاً الى ان العراق قد يطلب من اسرائيل طائرة الدورن الاسرائيلية الموجهة المسيّرة! ولعل اكثر المفارقات اثارة هو ان اسرائيل كانت تستخدم هذه الطائرة المسيّرة للتجسس على المواقع العراقية لحساب ايران، وان العراق كان قد اسقط قبل اربع وعشرين ساعة من بدء الغزو طائرة مسيّرة قد تكون من هذا النوع في منطقة الفاو، ثم اسقط في ١٩٨٨/٢/١١ طائرة اسرائيلية مسيّرة كانت مكلفة بالتجسس على المواقع العراقية في القاطع الجنوبي، بعد ان دخلت في الممر الجوي (آر

١٩) المخصص لاستخدام الطيران المدني، جنوب منطقة (المعانية).

وقبل وقوع الغزو الايراني للفاو تضاعف نشاط الشركات متعددة الجنسية في ايران، فكسبت مراكز نفوذ ارتبطت مصالحها الخاصة مع مشروعات التجهيز التي عقدتها تلك الشركات لتوريد معدات عسكرية، (وشبه عسكرية) تدعم المجهود الحربي، ومنها تجهيز القوات الايرانية بالملابس البرمائية والقوارب الرياضية التي تُحوّر للمهمات العسكرية، والاغذية المعلبة. مقابل تسهيلات في سوق النفط الدولية لتسويق النفط الايراني، وتشجيع شركات النقل البحري على التعامل مع ايران، وكانت أبرز تلك المجموعات التي ظهرت عامي ١٩٨٥ و ١٩٨٦ هي شركات يابانية والمانية غربية، وهما المجموعتان الدوليتان اللتان وفرتا معظم الاحتياجات التكميلية للقوات العاملة في المناطق البرمائية بما فيها ملابس الغوص والقوارب وتجهيزات الجسور العائمة، وهي المعدات التي أستخدمت على نطاق واسع في توفير مستلزمات غزو الفاو.

ولم تنحصر اهداف مجموعات الشركات متعددة الجنسية التي تعاملت مع ايران بتحقيق منافع تجارية بقدر ماسعت ايضاً الى تعزيز مواقف القوى التي ابدت استعداداً للتعامل السري مع جهات دولية عديدة لتأمين إحداث تغيرات في السياسة الايرانية تلبي حاجات تلك الدول واهدافها، الى جانب ما قامت من توسيع شبكة العلاقات الاسرائيلية داخل مؤسسات الحكم الايرانية، موُفرةً في الوقت نفسه ضمانات للحصول على مواقف ايرانية تمنع وحدة القرار السياسي للدول المنتجة للنفط في ذروة المؤامرة الدولية لتدمير اسعار النفط، التي ترافق خطها التصاعدي مع الاستعداد لغزو الفاو.

واضاف دخول الاقمار الصناعية (التجارية) واقمار التحسس

النائي Remod Sensing مصدر معلومات عسكرية متاحا للعديد من دول العالم، رغم ان هذه الاقمار مصممة اصلا لتصوير مناطق مختلفة من العالم لاغراض علمية في اتجاه المسح الجيولوجي والتنبؤ بالبراكين واستطلاع طوبوغرافية الارض، وامكاناتها على الاستثمار في الزراعة.

ومن بين هذه الشركات، شركت Spot وشركة لاندسات Landsat ، اللتان لاحقتا الكثير من تطورات الحرب العراقية ـ الايرانية، وكانت مثل هذه الشركات تقوم بالتقاط الصور للعمليات العسكرية الكبيرة، كما سبق ان عرفت بالصور التي التقطتها لحادث مفاعل (تشرنوبيل) في الاتحاد السوفيتي وبصورها لجزيرة خرج واثار الضربات العراقية فيها.

وقد تلقت ايران منذ عام ١٩٨٥ عروضاً سرية من ممثلي بعض الشركات التي تدير هذه الاقمار لتزويدها بصور للمواقع العراقية في القاطع الجنوبي، وحصلت طبقاً لذلك على العديد من الصور عن منطقة الفاو أستخدمت في الاعداد للغزو الذي قامت به القوات الايرانية، وبلغ الامر ان تواطأ بعض موظفي الامم المتحدة مع ممثلي ايران لتزويدها بصور التقطتها اقمار تعمل باشراف الامم المتحدة واجهزتها المختصة، ومثلت تلك الصفقة واحدة من أسوأ الفضائح الخارجة على مبادىء التعامل الدولي وقواعده في منظمة الامم المتحدة.

اما اسرائيل التي بدأت تسليح ايران بعد شهر واحد من شن الحرب على العراق. فقد ضاعفت من عمليات التسليح الممهدة لغزو الفاو، في الوقت الذي قامت بسلسلة من اعمال التشويش على الدفاعات العراقية، ومحاولات استراق المعلومات وتمريرها الى ايران، وركزت جهودها في التسليح على تزويد ايران بالاسلحة المضادة للدروع

والطائـرات واجهـزة التنصت الميـدانيـة ووسـائل التنصت المركزية الكبيرة، مع المساعدة على تحوير المعدات العسكرية المكرسة للرصد والتنصت، الى جانب تجهيز ايران بقطع غيار لطائراتها الحربية.

وكانت اكبر الصفقات الاسرائيلية ـ الايرانية التي افتضحت عام ١٩٨٥ هي تلك الصفقـه المرتبطة بالطائرة الاميركية، التي هبطت في مطار تبريز ثم غادرته لتهبط في طريق عودتها بمطار (بن غوريون) بعد مرورهـا في الاجواء التركية منفذة رحلة مكوكية جهزت ايران خلالها بمعدات عسكرية زادت قيمتها على نصف مليار دولار. عرف منها بعد غزو الفاو انواع مختلفة من المدافع اسرائيلية الصنع من انتاج شركة (سـولتام) الواقعة في الجليل الغربي، عيار (١٢٠) ملم وعيار (٨٠) ملم. واجهـزة اتصـالات ميـدانيـة من طراز (JRC) من انتاج شركة (تـاديـران)، التي توجـد مكاتبها في تل ابيب، وهي اسلحة ومعدات غنمتها القوات العراقية في معركة الفاو ومعارك الشمال التي رافقتها.
ووصلت الى ميناء بندر عباس الايراني على مدى سنة كاملة سبقت غزو الفاو عدة سفن تحمل شحنات من اسلحة غربية، واسرائيلية، منها سفينـة شحن تحمـل علم (باهاما) وتدعى (نيكول) أفرغت حمولتها المنقولة من ايلات الى بندر عباس في ٢٣ تشرين اول (اكتوبر) ٩٨٥ بعد رحلة طويلة من ميناء (شيربورغ) بدأت في ٨ آب (اغسطس)، وسفينة اخرى تدعى (لوتروتائيل) ترفع العلم القبرصي وصلت الى بندر عباس في ١٧ تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه، واستخدمت السفينتان وثـائق منشـأ موجهـة الى الباكستان والبرتغال وتايلاند كأسلوب في التمويه على وجهتها الحقيقية نحو ايران.

كما عقدت ايران في الفترة نفسها صفقة مع شركة (فويسه الباين) النمساوية يجري بموجبها مقايضة النفط الايراني بتجهيزات عسكرية

قيمتها (٥٥٠) مليون دولار، على ان يكون مصفى النفط الايراني في جنوب افريقيا، حلقة الوصل في تنفيذ الصفقة وتمويلها بالتنسيق مع السلطات الحكومية في سالزبورغ.

وهكذا صارت ايران سوق نخاسة مشاعاً لاجهزة المخابرات الدولية والشركات متعددة الجنسية وتجار السلاح الاسرائيليين. وفتح القادة الايـرانيـون مغـاليق ايران امام كل الشياطين لتحصل على اسلحة ومشـورات ومساعدات تعبوية ومعلوماتية ودعائية تساعد على تنفيذ خطة غزو العراق.. عبر الفاو.

# صيد في السماء

كان القتال على اطراف الفاو، قد بلغ أشد أوضاعه قساوةً، عندما انفجرت في سماء ايران خلال اسبوع واحد، طائرتان، واحدة في الشمال الشرقي والثانية في الجنوب قرب الاحواز، لتتناثرا بعيداً مئات الكيلومترات عن اكبر المعارك على البر وعند الشواطىء وفي البساتين، ولم تخرج غير بضعة اخبار صغيرة عن قيام الطيران العراقي بتفجيرهما في اعالى السماء، لتختفي خلف ذلك اسرار كبيرة تطويها ايام الحرب الضروس فتضاف الى وقائع غامضة تشح الاخبار عنها.. ثم تتلاشى..

ولكن هاتين الواقعتين المتتاليتين كانتا كافيتين للكشف عن اسرار تتصل بعلاقات غامضة نشأت على هامش الحرب، بين ايران وقوى سرية وعلنية بعضها يتداخل مع عالم الارهاب الخفي، والاخر ينطوي في سجل العلاقات السرية مع اسرائيل، التي كانت محجوبة عن الانظار فترة من الزمن.. وهما واقعتان تشهدان على جانب فني معقد ومركب من الصراع الدائر في حرب الخليج، بعيدا عن ميدانه العسكري التقليدي على اليابسة وفي العمليات البحرية والجوية المساندة والمكملة.

# كيف تحوّلت طائرة النقل الى محطة تجسس؟

كان اربعة طيارين وملاّحين يتقاسمون المقاعد في مقصورة القيادة، غير آبهين بما يدور في جذع الطائرة الواسع الطويل، فمهمتهم محصورة بالبقاء في نطاق بعيد عن مجال العمليات الحربية المباشرة، حيث لاتتوفر لطائرة (C. 130) مرونة للمناورة تحميها من الطائرات العراقية التي تجوب المجال على طول اكثر من الف كيلومتر من الشمال حتى الجنوب..

ولم ينتاب اولئك الرجال الاربعة اي ملل لانهم كانوا سيعودون بعد نصف ساعة على الاكثر الى قاعدة همدان الجوية حين تنتهي (الدورية) التجسسية التي تقوم بها طائرتهم، وكان الباب المفتوح بين مقصورة القيادة وجذع الطائرة يتيح مشاهدة ثمانية اشخاص منهمكين بمراقبة شاشات صغيرة جرى نصبها على طول الطائرة ثم وضعت مقاعد صغيرة امام كل واحدة منها بحيث تشبه جلستهم، مركز السيطرة التلفزيونية الذي يتحكم باستديو يتحرك داخله الممثلون، فقد جرى تحوير شكل الطائرة من الداخل، بأن سحبت المقاعد المرصوفة بشكل افقي متتال، وجرى نصب مركز مراقبة لتسجيل الاشارات اللاسلكية على طول الجهة اليسرى، بحيث انقسم جسم الطائرة التي كانت حتى عام ١٩٨٥، احدى طائرات النقل العسكرية الضخمة، الى نصفين، احدهما مخصص لشاشات الرصد واجهزة التسجيل، والثاني لمقاعد صغيرة لاتكاد المساحة المتبقية حولها تكفي لحركة العاملين داخلها.

كل شيء، كان يوحي لاثنى عشر رجلاً في داخلها، بالأمان، وكل مادار بينهم من احاديث لم يتجاوز موضوعات شخصية، انتهت بنكتة عن

الرئيس الايـراني الذي اجتمع بطيارين ايرانيين واصدر اليهم امراً بمهـاجمـة اهـداف عراقية، شرح لهم كيفية استخدام ازرار اطلاق الصواريخ والقاء القنابل، واستفاض في شرح كيفية تشغيل الطائرة، حتى سأله احد الطيارين: لقد ذكرتم لنا كلَّ شيء.. ولكن كيف سنهبط على الارض..؟ فاجابه الرئيس الايراني: هذا ليس واجبكم.. فسيتولى العراقيون الامر!.. لم يكن هناك وقت كثير الضحك.. لم يكن هناك وقت اخر للكلام.. فقد انشقت الطائرة فجأة.. وانفجرت في ثوان.. ثم انتهى كل شيء.. مطار مهر آباد في طهران الذي كان يتابع الاتصال بالطائرة تلقى اول اشعـار بانفجار الطائرة.. وهو عادة المطار الذي تلوذ اليه الطائـرة بعد الانتهاء من طيرانها الاستطلاعي، ولكنها هذه المرة لن تعود.. لا إليه.. ولا الى مطار همدان..

كانت الصـدمة قوية ومفاجئة، لان النطاق الذي اختارته الطائرة لتحليقها يبعد (٣٥٠) كيلومترا عن الحدود مع العراق، ولم يكن منتظراً ان تقوم الطائرات العراقية بمهمات في الجبهة الشمالية، بينما تدور في الجنوب معارك ضارية حول (الفاو).. ولكن اقسى ما اصاب ايران، ان تلك الطائـرة هى اثمن ما كانت تملكه، او ما ملكته خلال حربها مع العراق.. فلم تخرج من طهران اية انباء.. واكتفت البلاغات الايرانية بالحديث عما يدور في الجنوب حيث وقع الغزو الايراني في منطقة (الفاو).

هل كانت ايران قادرة على تحوير طائرة النقل العسكرية الضخمة (C. 130) المعروفة باسم (Hercules) (هيركوليس) لتكون طائرة رادارية كالتي اسقطتها الطائرات العراقية، وهي تقوم بمهمات تسجيل والتقاط الاشـارات اللاسلكيـة..؟.. ان لم تكن قادرة على ذلك.. وهـو الامر

الراجـح، فكيف ومن أين حصلت على المسـاعـدة الفنيـة لتحـويـر الطائرة..؟.. واية يد هذه التي تورطت في حرب تداخلت وتشابكت فيها مواقف قوى واطراف اقليمية ودولية عديدة..؟

المعروف ان الولايات المتحدة تنتج ثلاثة انواع من الطائرة (C. 130) ، محافظة على شكل هيكلها وحجمها، ولكنها تختلف في نوع المهمات التي تقـوم بهـا، رغم استخـدامها منظومة محركات من نوع واحد.. وقد حصلت اكثـر من اربعين دولة على هذه الطائرة لاستخدامات النقل العسكرية، حيث يشير الحرف (C) في قاموس الطيران الاميركي للدلالة على استخدامات النقل[١] ، وتشير مصادر الاحصاءات الغربية الى ان خمسـا واربعين دولة في العالم تستخدم هذه الطائرة بما فيها ايران واسرائيـل، الى جانب استخدامها من قبل سلاح البحرية الاميركية، والقوة الجوية الاميركية، وقوات مشاة البحرية الاميركية[٢] .

وقد اولى شاه ايران اهتماما كبيرا للحصول على هذه الطائرة، بسبب سعة مساحة بلاده، وحاجته الى نوع من الطائرات التي تساعد على نقل قوات محمولة من مكان الى اخر لتلبية متطلبات خططه في مهاجمة اهداف في العراق والخليج بحيث تكون قدرته على المناورة مستندة الى وجود اسطول جوي كبير، ولذلك تجهز باربعة وستين طائرة، من نوع (C. 130 H) (وقد تسلم منها خمس عشرة طائرة) ومن نوع (c. 130 E) (وتسلم منها تسعا واربعين طائرة.) اتخذت من قعادتي (من اباد) و (شيراز) مقرين اساسيين لها[٣] .. وتشك المعلومات الحديثة بامتلاك ايران حاليا لنصف ذلك العدد بسبب سقوط عدد منها خلال الحرب، وقيـام مجمـوعـات معارضة بتفجير عدد اخر داخل القواعد الجوية الايرانية، وسقوط طائرات اخرى مثل تلك التي كان سقوطها سببا لمقتل وزير الدفاع ورئيس الاركان وقائد الطيران قرب الاحواز عام ١٩٨١[٤]

وبينما انشغل الشاه بالحصول على اكبر عدد من الطائرات لغرض التفوق على العراق والسعودية وبقية دول الخليج، فقد اولى اهتماما كبيرا للحصول على منظومة كاملة لاغراض التنصت، وبدلا من ان يتم نصبها في اتجاه الحدود السوفيتية، جعل من مدينة ديزفول ومنطقة الشوش غرب ايران قاعدة لهذه المنظومة لرصد الاشارات اللاسلكية في منطقتي الخليج والمشرق العربي. وكانت هناك اربع طائرات من نوع (هيركوليس) قد طورت من قبل شركة اميركية تتولى E. Systems لمراقبة الاشارات اللاسلكية كجزء من نظام ارضي وجوي يدعى Ibex [٥] وهي عبارة عن شبكة نظامية توصلت اليها الشركة الاميركية Rockwell وتدل الاشارات على وجود قاعدة ارضية متحكمة حيث كانت محطة التنصت الرئيسية في (ديزفول والشوش)، هي التي تتولى هذه المهمة، بينما ركبت على الطائرة كاميرات مائلة لتصوير مرسلات الرادار من ارتفاع عال الى جانب اجهزة لمراقبة وتسجيل اشارات الراديو والرادار المنبعثة من الدول المجاورة [٦]، وقد صممت المنظومة اصلاً لاستخدام طائرتين من نوع (بونيخ 707 ) وطائرتين من نوع (P.3) المستخدمة للاستطلاع البحري، ولكن السنة الاولى من الحرب كانت كفيلة بتدمير جزء كبير من تلك المنظومة، عدا عن التخريب والنقص في اجزاء حيوية من النظام الالكتروني فيها.. بينما ظلت ايران تحتفظ باثنتين الى ثلاث طائرات من نوع (P.3) التي كان يحق ان توصف بانها (شرطي الخليج) حيث تتكرس مهمتها للقيام بمسح استطلاعي على طول الخليج، وقد برهنت سنوات الحرب على عجز ايران عن تشغيلها، او فقدانها اصلا في احدى الهجمات الجوية العراقية على قواعد الطيران في العمق الايراني وبذلك قطع العراق احد أذرع التهديد الموجه ضد منطقة الخليج في وقت مبكر من الحرب.

فهل كانت الطائرة (C. 130) التي فجرّتها الطائرات العراقية في عمق ايران خلال معركة الفاو ١٩٨٦ واحدة من تلك الطائرات الاربع..؟

يبدو مثل هذا الاحتمال ضعيفا لان وجود تلك الطائرات وعملها كان مرتبطا بمنظومة (Ibex) بما فيها من قاعدة ارضية وطائرتين من نوع بوينغ (707) واخريتين من نوع (P.3) بحيث تعمل سوية تحت نظام واحد للتنصت،بينما تتميز الطائرة التي اسقطت بتماثل مهمتها مع مهمات طائرة (الاواكس) الاميركية المعروفة، ولم تكن قد ظهرت في سنوات الحرب الماضية، قبل التحضير لاكبر معارك الحرب حتى ذلك الوقت، بشن هجوم كبير لغزو منطقة (الفاو) العراقية. وكان وجودها في ايران كان حلقة من حلقات الاعداد للغزو عبر شط العرب، وهو ما يمكن ان يفسر التأخير في الاعداد وللغزو، وصدور اشارات عديدة عن حصول ايران على اجهزة ذات فعالية في التنصت.

هناك جهتان في العالم، قادرتان على امتلاك امكانية تحوير طائرة الهيركوليس لاستخدامات الرصد والتنصت والالتقاط، هما الولايات المتحدة واسرائيل.. فمن اين حصلت ايران على المساعدة السرية هذه المرة..؟

ثمة ثلاثة انواع من فصيلة (C. 130) ذات هيكل ومحرك متماثل في جميعها.. الاولى (C. 130) وهي طائرة نقل تكتيكية تعرف باسم (Tactical Military Air Lifter) والثانية (Kc. 130) وهي طائرة صهريج (Military Tanker) والثالثة من نوع (EC. 130) وهي طائرة الاجراءات الالكترونية المضادة التي تسمى (Electronic Counter Measures)ECM . ولاتتوفر اية معلومات عن توريد النوعية الثانى والثالث الى ايران، رغم ادخال النوع الثالث ECM كجزء من منظومة التنصت الشاملة التي سعى الشاه الى امتلاكها.. ولكن اخر المعلومات، التي

توفرت حتى سقوط الشاه تؤكد عدم دخول هذا الطراز الى الخدمة في ايـران، بينمـا كانت الوجبـات الاسـاسية من طائرة (C. 130) التي اشترتها وتسلمتها ايران على النحو التالي ( ٨ طائرات (C. 130) عام ١٩٦٨، ٣٠ طائرة (C. 130) واواخر ١٩٧٠ واوائل ١٩٧١، ٢٠ طائرة (C. 130) عام ١٩٧٢)[٧] عدا اعداد قليلة وصلت قبل عام ١٩٧٩ الى ايران.

ورغم تسرب اسلحـة امـيركيـة عديدة الى ايران سواء تلك، التي وصلت قبل افتضاح صفقه السلاح الاسرائيلية ـ الاميركية عام ١٩٨٦ المعروفة بايران غيت التي نقلها تجار السلاح الاسرائيليون، او التي سرقت من مخـازن الجيش الامـيركي في اوربا، مع استمرار سريان الحـظر الرسمي الامـيركي على تصـديـر السلاح الى ايران، الا ان الاسلحة المتسربة حتى افتضاح (ايران غيت)، كانت في معظمها انواع وعيارات مختلفة من المدافع، وقطع الغيار للطائرات، واجهزة تنصت ميدانية، ومعدات تكميلية، ولم يكن لمثل هذه الاسلحة ان تشكل ادوات لعمليـة تحـويـر في طائـرة ضخمـة عدا عن انعدام القدرة العلمية والتصنيعية في ايران للقيام بمثل هذه العملية التركيبية المعقدة. لكن اسرائيـل، التي ترصـد حرب الخليج باعتبارها ميداناً تتصل وقائعه بمستقبل الامن الاسرائيلي، وساحة مكملة لساحة الصراع التقليدي بينهـا وبين العرب، تصرفت منذ بدء الحرب بما ينسجم مع مباديء الأمن الاسرائيلي وفي الضد من مصالح الامن القومي العربي، وحكمت سلوكها العناصر التالية في سياسة التسلح السرية لايران:

**العنصر الاول:ـ** تزويد ايران باسلحة لايمكن ان تستخدم في يوم تتغـير فيـه اوضـاع ايـران ضد اهـداف اسرائيليـة، ويبقى نطاق استخـدامهـا في حدود الاهداف العراقية والخليجية (اي في ميدان

الصراع القائم في حرب الخليج).

**العنصر الثاني:ـ** اعتبار ايران سوقاً لتصريف الانتاج العسكري الاسرائيلي، وتسويق المعدات والاسلحة ذات التكلفة العالية واستثمار الحاجة الايرانية الملحة للسلاح للحصول على اكبر الارباح.

**العنصر الثالث:ـ** ادخال المعدات العسكرية الاسرائيلية او المحورة في اسرائيل الى نطاق التجربة العملية،وبخاصة تلك التي لم تتوفر فرص استخدامها في الحروب الاسرائيلية مع العرب، عدا ما يحله ذلك من ترويج للصناعة الحربية الاسرائيلية.

في اطار هذه الضوابط التسليحية، لم تصل الى ايران اسلحة ذات فاعلية واسعة في النطاق الجغرافي، سواء في مجال الرصد والتنصت او القصف والهجوم، وقد توفرت لشركة (Soltam) الاسرائيلية ساحة اختبار وتسويق ثمينة في ايران بما صدرته اليها من معدات تنصت ميدانية محدودة الفاعلية في النطاق الجغرافي للميدان، والتي جرى الكشف عن وصولها الى ايران خلال معركة الفاو، والمعارك اللاحقة التي رافقتها وتلتها في المناطق الجبلية شمال جبهات القتال[٨].

لكن الدور الاسرائيلي دخل منعطفا جديدا بعد اعلان القضاء الامريكي عن كشف صفقة ضخمة لتهريب السلاح المصنع في الولايات المتحدة بواسطة وكلاء اسرائيليين بعد شهرين من بدء معركة (الفاو)، واصدار اوامر ايقاف ضد ضابط اسرائيلي كبير في جزيرة (برمودا)، ثم امام القضاء في مدينة نيويورك مع عدد اخر من تجار السلاح الاسرائيليين الذين يعملون بمعرفة وتوجيه مراكز في اسرائيل على الاقل هي (مؤسسات التصنيع العسكري، جهاز الموساد، عدد من اعضاء الحكومة).. والكشف عن شبكة اتصالات ايرانية ـ اسرائيلية تداخلت فيها مهمات عصابات سرية اوربية.

فقيمة الصفقة بلغ بليوني دولار، وهو اضخم مبلغ لصفقة واحدة تدخلت اسرائيل لترتيبها لصالح ايران، سواء بتصدير معدات مصنعة في اسرائيل او خارجها، بعد ان كان اكبر رقم قد تسرب قبل معركة الفاو عن قيام التسليح الاسرائيلي الايراني هو مبلغ (٥٠٠) مليون دولار دفعت عن شراء الاسلحة الفلسطينية التي غنمتها القوات الاسرائيلية في جنوب لبنان ثم باعتها مع اطارات طائرات الفانتوم، وانواع مختلفة من المدفعية الى ايران، ويدل هذا التحول على عدة امور هي:

١. ان اسرائيل نظرت الى الهجوم الايراني في الفاو باعتباره اكبر عمل عسكري ايراني في الحرب لاحتلال ارض عراقية حيوية يمكن للوجود الايراني فيها تهديد الخليج العربي كله. ولذلك رفعت من مستوى التسليح والخدمات المباشرة، التي وفرتها لصالح العمل العسكري الايراني، وكانت المراهنة الاسرائيلية على هذه المعركة اساسية وقد تطلبت رمي ثقل كبير فيها.

٢. ان لمسات حكومة شمعون بيريز (آنذاك) بعد اقل من سنتين في الحكم، بدأت تتضح في تقديم مساعدة سرية لايران يحيطها الكتمان ويجري فيها استبعاد اي أمر يوّثق دوراً اسرائيلياً رسميا مباشرا كالذي كشف عنه بعد اسقاط الطائرة الارجنتينية قرب الحدود الايرانية - السوفيتية وهي تحمل اسلحة اسرائيلية الى ايران في تموز (يوليو) ١٩٨١. وان التبديل الذي أُعتمد لاحقاً، هو تكليف ضباط متقاعدين يعملون بصفات غير رسمية، ومن خارج اسرائيل للقيام بهذه المهمات وتحاشي الاعتراف الرسمي بالتورط فيها، كما كان آرييل شارون يفعل من قبل في ظل حكومة مناحيم بيغن.

٣. ان دخول اسرائيل باسلوب العمل السري الجديد، لعقد صفقة ضخمة يعني انتقال التنسيق التسليحي السري من توفير معدات

تكميلية وقطع غيار الى توفير طائرات ودروع، ومن هنا فان اتجاها من هذا النوع لابد ان يكون العمل فيه قد بدأ قبل غزو الفاو.. ولذلك يأتي السؤال: هل قامت اسرائيل بمهمة تحوير طائرة الهيركوليس من طائرة نقل الى طائرة اجراءات الكتروتية مضادة في تلك الفترة؟.

منذ الثاني عشر من شهر حزيران (يونيو)، انتقل (موشي كيريت) من منصب نائب مدير التسويق ثم منصب مسؤول التسويق الى اعلى مسؤولية في شركة (الصناعات الجوية الاسرائيلية _ Israel Air-craft indus tries )بعد ثلاثين سنة من العمل فيها. ومنذ ان باشر (كيريت) مسؤولياته كان شاغل التسويق قد طبع سلوكه واهتمامه بعد ان امضى فيه ثماني سنوات متصلة بين (١٩٧٧ و ١٩٨٥). ولذلك كان يبحث عن الاسواق ويجد في المعارض الدولية التي تشارك فيها اسرائيل فرصته الذهبية للترويج والبحث عن اسواق جديدة، بينما يبحث له الوكالاء السريون للموساد عن عملاء يعملون في السر، ويخفون الصفقات لدوافع سياسية ومعنوية، تتعلق بطبيعة صورة اسرائيل في العديد من الدول وهو امر يتفهمه (كيريت) وخاصة عندما يكون الطرف الاخر مثلا لدولة اسلامية تجاهر اسرائيل العداء عبر وسائلها الدعائية.

ولذلك اولت مؤسسته اهتماما خاصة بمن يتقدم للحصول على معدات جديدة او محورة تدخل في ميادين اختبار حية. واصدر على الفور اوامره بنشر اعلان عن (استعداد اسرائيل لتحوير طائرة الهيركوليس من طائرة نقل الى طائرة تنصت والتقاط اجراءات الكترونية مضادة. في المجالات العسكرية المتخصصة. كانت قد سبقته عدة اعلانات رافقت معرض الطيران في فرنسا حول استعدادات للقيام

باعمال تحوير مماثلة. ولم يكن دور الوكلاء السريين كافياً لاقناع الايرانيين بأهمية وجدوى الحصول على تحويرات في طائرات الهيركوليس، اذ ان ذلك الدور ليس سوى وجه واحد في عمل مركب، كان وجهه الاخر اعلانات الترويج العلنية التي تنشر للجميع ليوحي للايرانيين بامكانية الحصول على مشترين اخرين، وبان هذه الصناعة قد بلغت مستوى من الجودة يجعلها جديرة بالترويج والدخول في المنافسة العلنية. وان مفوضين من اكثر من دولة، كانوا يتصلون بالهاتف (٩٧١٣١١١) في مطار (بن غوريون) او بمكاتب محددة في نيويورك واحدى العواصم الاوربية للتقدم بطلبات الحصول على صفقة مع اسرائيل وذلك بهدف حصر الايرانيين في اضعف مقف تساومي، وانتزاع المزيد من التنازلات المادية والسياسية.

ايران في المقابل التي كانت تعد لغزو كبير ضد الاراضي العراقية، طوال عام ١٩٨٥، وبالضبط منذ انتهت معارك الربيع في الاهوار، وكان ذلك سبباً لما اظهرته من استعداد للخضوع امام المفاوضين الاسرائيليين، وكان تحوير طائرة من مهمات النقل الى مهمات التنصت واحدا من مستلزمات الغزو الجديد.. وهكذا بدأت.

وعندما كانت طاولات المفاوضات السرية تصطخب بالبحث عن اثمان لمقايضة هجرة اليهود من ايران الى فلسطين المحتلة، لفت المفاوضون الاسرائيليون السريون انتباه المفاوضين الايرانيين الى استعداد اسرائيل لتقديم خدمة نوعية لايران تتضمن تحوير احدى طائرات النقل ( C. 130 ) لاغراض التنصت والاعمال الالكترونية المضادة.. الى جانب تجهيز ايران بصفقة من صواريخ (تاو) المضادة للدروع وصواريخ ارض - جو، وهما السلاحان المساعدان في محاولات ايران الحد من سيطرة سلاحي الطيران والدروع العراقيين على

ساحـات المعـارك في الحـرب، مقابل وضع اسس لنقل خمسة الاف يهودي ايراني، على دفعات عن طريق عدة دول في المنطقة وفي اوربا، واطلاق سراح بعض الرهائن الاميركان المحتجزين في لبنان.

ولذلك كانت الاتصالات السرية بين ايران واسرائيل عام ١٩٨٥ أهم ما جرى بين الطرفين خلال الحرب. لان ما تلاها من اتصالات واتفاقات لم يكن سوى تنفيـذ لمفـردات ما سبق أن تم الاتفـاق على خطوطه الرئيسية في عام ١٩٨٥.. وهو العام الذي مهدتّ فيه ايران لغزو جنوب العراق، وحصلت فيه على فرصة تحوير احدى طائرات النقل لاغراض التنصت والاعمـال الالكتـرونية المضادة، حتى اذا ما وقع الغزو في الفاو، كان موعد الطيارين العراقيين مع اثمن الاهداف التي حلقت في سماء ايران طوال الحرب ليحيلوه الى شظايا واجزاء متناثرة.

## هوامش وملاحظات:

١. تدل الحروف التالية على ما يقابلها من نوع الطائرات الاميركية:

طائرة قتال رئيسية لاستخدامات الجيش الاميركي: A - Attack

طائرة مقاتلة F - Fighter

طائرة صهريج K - Tanker

طائرة نقل C - Transport

طائرة استطلاع T - Reconaissance

طائرة استطلاع استراتيجية SR - Strategic

طائرة قاصفة B - Bombers

٢. الدول التي حصلت على طائرة النقل (C. 130) هي:

(دولة الامـارات، انكـولا، الارجنتين، استراليا، بلجيكا، بوليفيا، البرازيل، الكاميرون، كنـدا، تركيا، اوغندة، بريطانيا، تشيلي، كولومبيا، ايران، اسرائيل، الاكوادور، الدانمارك،

اليونان، السودان، مصر، السويد، اندونيسيا، ايطاليا السعودية، الاردن، الكويت، ليبيا، ماليزيا، المغرب، اسبانيا، فنزويلا، سنغافورة، نيوزلندة، نيجيريا، الباكستان، النرويج، بيرو، الفلبين، البرتغال، جنوب افريقيا، فيتنام، زائير، (الولايات المتحدة ـ سلاح البحرية، سلاح القوة الجوية، سلاح مشاة البحرية).

٣. MARK HEWISH, BILL SWEETMAN,
BARRY WHEELER, BILL
CUNSTON - (Air Forces Of The World). 1984. London Page (160)

٤. سعد البزاز (الحرب السرية) ـ لندن ١٩٨٥. ص ١٠٠ ـ ص ١١٢.

٥. مصدر سابق: Air Forces of The World - Page (160)

٦. المصدر السابق: Page (160)

٧. حداد، سلمى: المساعدات الاميركية العسكرية لايران دار القدس ـ بيروت دراسة مقدمة في جامعة نيويورك. ص ٩٢، ص ٩٧، ص ١٠٢.

٨. سولتام Soltan : شركة اسرائيلية تقوم بصناعة الذخائر العسكرية، تقع في وادي جزريل، وقد واجهت صعوبات كبيرة عام ١٩٧٩ عند سقوط الشاه، الذي كان افضل زبائنها (مجلة Time ـ العدد 128. No. 10 ـ ٧ ـ تموز ١٩٨٦ ـ صفحة ٥٢). والعلاقة بين ايران وهذه الشركة، مشابهة للعلاقة مع معظم الشركات التي كان الشاه يتعامل معها في السابق، اذ تمت العودة للتعامل معها اعتمادا على مبرر فني يتعلق بنوع التصاميم والمتطلبات الفنية والتدريب الجاهز لاستيعاب معداتها، مع استعداد كبير اظهرته الشركة التي عانت في السنوات التي تلت سقوط الشاه من تراجع في ارباحها فرض عليها البحث عن الاسواق والترحيب بالطلبات الايرانية اللاحقة بعد اندلاع الحرب العراقية ـ الايرانية.

٩. Military Technology: Vol: IX, Issue 10, 1985:

طبقا لاخر احصائية فان طائرة هيركوليس قد بنيت بخمسة واربعين نوعية وجرى تزويدها الى خمسة وخمسين بلدا.

# صاروخ
# في انتظار طائرة الجلاد

كانت المعارك قد دخلت اسبوعها الاول حول مدينة الفاو.. ولكن الابصار كانت تلاحق مدن الحرب الايرانية التي تُدار منها عملية الغزو الايرانية للفاو..

ومدينة الحرب الاولى في إيران. هي الاحواز، فكل شيء فيها وحولها صار يخضع لارادة الجيش والحرس، وهي بمثابة محطة أخيرة، تحط فيها طائرات كبار المسؤولين الايرانيين في رحلاتهم من طهران الى الجبهات، ومعظمهم لا يغادر الاحواز حيث يتخذ مقراً له هناك يتابع من مايدور من معارك في الجبهة الجنوبية، وقد أُلغي خط الطيران المدني بين طهران والاحواز، واقتصرت الرحلات الجوية على الطيران العسكري. حيث تقوم طائرات النقل (C. 130) برحلات مكوكية، تنقل فيها الضباط، ثم تعود بهم جرحى او مشوهين الى مستشفيات العاصمة، اما كبار المسؤولين فأنهم يستقلون طائرات عسكرية اصغر حجماً لتوفر ظروف رحلة اكثر ارتياحا، يتجمعون عادة في قاعدة مهر آباد الجوية قرب طهران، كما فعلوا يوم (١٦) شباط ١٩٨٦، عندما دعا اعز تلاميذ خميني، ورجله الامين، فضل الله محلاتي، (سبعة واربعين) من الاعضاء البارزين في مجلس الشورى وقيادة الحرس، ليستقلوا طائرة عسكرية من نوع (Fokker - 27) ويتجهوا بها الى مدينة الاحواز حيث تدار من هناك عمليات غزو (الفاو).

وكان بين المدعوين في هذه الرحلة عدد من اعضاء المحاكم الثورية، وهم حين يجتمعون بوجود محلاتي، يشكّلون هيئة مكتملة لاتخاذ

القـرارات الصـارمـة وهي الاعـدام عادة... فقد وصلت الى طهران معلومات من قيادات الحرس الميدانية حول رفض عدد من الآمرين عبـور شط العرب والالتحاق بمن سبقهم الى منطقة (الفاو)، وتداول مجلس الدفاع الاعلى تلك المعلومات، فانبرى محلاتي باعتباره الممثل الشخصي لخميني في قيـادة الحرس، ليترأس مجموعة من «الحكام» يذهب بهم الى الاحـواز ليصـدر من هنـاك قرارات اعـدام تنزل بالعسكريين المتمردين.

لقـد عرفت ايـران، منـذ شبـاط (فبـرايـر) ١٩٧٩ مجموعة من الجـلادين، الذين يتمتعـون بصلاحيات شفهية ممنوحة من خميني لاتخاذ قرارات الاعدام وتنفيذها، كان فضل الله محلاتي، يتنافسون في تسجيـل ارقـام قيـاسيـة بعـدد احكام الاعلام العد ثلاثة التي اصدروها اما الآخران فهما (صادق خلخالي) و(هادي غفاري).

وقـد اشتـرك محلاتي في اطلاق الرصاص مع خلخالي على (امير عباس هويدا) رئيس وزراء ايران الاسبق.. وحين تآمر الابن الروحي للخميني (صادق قطب زادة) على النظام ذهب محلاتي بنفسه ليضع خطة القاء القبض عليه، ثم إتخذ له بعد ذلك مقعداً في المحكمة الخاصة التي ادانت (قطب زادة) و(حجة السلام مهدوي) بجريمة التآمر على (الجمهورية الاسلامية) واصدرت ضدهما حكما بالاعدام.

كان محلاتي مستعدا للقيام بأي عمل للمحافظة على ثقة خميني به، فقـد عيّنـه ممثـلاً شخصيـاً في المحـاكم الثورية، ثم رئيسا للدائرة السياسية في قيادة الحرس، ثم أعطاه لقب الممثل الشخصي في الحرس ايضا.. بعد ان متّعه بعضوية مجلس الشورى، وهي مناصب تمنح صاحبهـا سلسلة من الامتيـازات، وتوفر له كيانا اعتباريا يتحكم في

اتجاهات الحياة السياسية والعسكرية معا، مع ان محلاتي لم يكن يحلم يوماً بأن يصبح رجلاً متنفذاً تخشاه قرى ايران ومدنها وتروى القصص عن قسوته وبطشه بالآخرين، رغم ان أباه (حاج آغا نور الله) كان رجل دين معروفا في مدينة محلات التي ولد فيها سنة ١٩٣٩ وانتقل منها الى مدينة (قم) ليدرس في مدرسة (الفيضية) ويلتقي هناك بخميني الذي ميّزه عن زملائه، وجعله مصدر معلوماته عنهم، وهناك ايضا التقى مع علي اكبر هاشمي بهرماني الذي اصبح اسمه بعدئذ (هاشمي رافسنجاني) رئيس مجلس الشورى، ومحمد محمدي ريشهري وزير المخابرات الايراني..

وبعد ست سنوات مرت على وصول معلمه الى الحكم، أصبح محلاتي اشهر الاغنياء بين رجال السلطة بعد ان كان اكثر طلبة خميني فقراً وعوازاً..

كان آخر من وصل الى مطار (دوشان تبه) (Doshan- Tap-peh) هو فضل الله محلاتي، بعد ان سبقه اعضاء المحاكم واعضاء مجلس الشورى، وهو مطار لا يبعد كثيرا عن قاعدة مهر آباد الجوية الكبيرة ويقع في الشرق منها، وكان اختيار مطار (دوشان توتبه) بدلا من (مهر آباد) مؤثرا على بحتة.

.. وقبل ان تهبط الطائرة في مطار الاحواز وعلى بعد ثمانية كيلومترات شمال المدينة وعلى مسافة تزيد على خمسة وستين كيلومترا عن الحدود العراقية، انطلق صاروخ (جو ـ جو) من احدى الطائرات العراقية التي تمسح سماء المنطقة، فمزق هيكل الطائرة..

وتناثرت المقاعد، وأشلاء ركابها، وتحولت الطائرة ذات الطول البالغ (٢٥٫٥٦) مترا والارتفاع البالغ (٨٫٧١) مترا الى كتلة من اللهب، ولم يلبث الحطام أن توزع على مساحة تزيد على بضعة كيلومترات

مربعة... فقد كانت الطائرة تطير بسرعة تزيد على (٢٧٠) كيلو مترا في الساعة، ولذلك لم يكن متوقعا ان يجمع الايرانيون الذين اسرعوا الى مكان انفجار الطائرة غير بقايا لا تكمّل جسدا كاملا لأي من المسؤولين الايرانية الثمانية والاربعين.. ولم تكن نتائج تلك الضربة مدمرة على المستوى النفسي لمؤسسات الحكم في ايران فقط، بل انسحب ذلك ليؤثر مباشرة على مافيا الارهاب الدولي التي خسرت احد اقطابها في هذه العملية... وهو الرجل الذي كان يتولى مسؤولية التنسيق بين الحرس والمجموعات الارهابية في لبنان والخليج واوربا... لقد تكسّر واحد من أضلاع كل مثلث من المثلثين اللذين يتحكمان بالارهاب في الخارج والقمع في الداخل.. فمنذ عام ١٩٧٩ لعب محلاتي دورا اساسيا في دعوة ممثلين من حركات سرية من الخليج والجزيرة وشمال افريقيا وتركيا واقطار عربية اخرى الى مؤتمر عام بطهران كان الهدف منه. التقاط الاشخاص والمنظمات ذووي الاستعداد لقبول فكرة نقل العنف الى مجتمعاتهم، وكان على (محلاتي) ان يسجل ملاحظات عن الاشخاص الذين يلتقيهم، واكثر ماكان يعنيه هو التعامل مع اولئك المنحدرين من منطقة الخليج ولبنان، ومنذ ذلك الوقت. شكل (محمد تقي مدرسي وهادي مدرسي) ضلعا في مثلث الارهاب الخليجي، يقابله (هاشمي مهدي هاشمي) شقيق صهر منتظري كضلع ثان، وفضل الله محلاتي على الجانب الاخر كضلع ثالث محاطين (بمحمد شمع خاني).

قائمقام الحرس، وكانت تعمل تحت أمرة هذا المثلث شبكة من الاشخاص المنظو ن في مؤسسات رسمية او منظمات سرية من عسكريين ومدنيين، ففي وزارة الخارجية، لم يكن (لاواساني) المدير المكلف بمنطقة الخليج الذي سبق ان أشترك في احتجاز الدبلوماسيين الاميركان كرهائن، سوى منقذ لتعلميات هذا الثالوث، يساعده عدد

كبير من الموظفين وبخاصة اولئك الايرانيين الذين سبق لهم ان عاشوا في الخليج، اما آمرو معسكر (المتذرية) للتدريب فليسوا سوى جهة تنفيـذيـة تتلقى اوامر يومية من شبكة ثلاثية الاضلاع.. حيث تعد اشخـاصهـا مدربـين على اعمـال الاغتيال والتفجير والتخريب.. في الاقطار العربية، والتسلل عبر لبنان الذي سبق لمحلاتي ان زاره عام ١٩٦٧.

أما مثلث القمع داخل ايران فيتقاسم اضلاعه (صادق خلخالي) و(هـادي غفـاري) و(فضـل الله محلاتي)، فهم (فلاسفة) الاعدام الفوري، ودعاة المحاكم السريعة التي تنعقد حيثما حلّوا في انحاء ايران.

قبل شهرين فقط من تفجير طائرة محلاتي، استعدت ابنته (فاطمة) ذات الثماني عشرة سنة للزواج من رجل اختاره محلاتي، وهي واحدة من ثلاث بنات، واخت لولد واحد اسمه حسين وعمره (٢١) عاماً، من زواجين له في حياته.. وحين انتشر الخبر بين الناس لم تسمع البنت كلمـات تبريك من خارج اهل دارها.. وارادت ان تفهم معنى عزوف الناس عن تهنئتها في يوم عرسها... ولكنها لم تفهم ان عزلتها بين الناس هو ثمن تدفعه نيابة عن والدها الذي يقترن اسمه بالموت، والاعدام الفوري، والاعتقال والمطاردة، وتصدير الارهاب الى الخارج... واحست حينها ان الناس لا يحبون اباها الى حد لم تتوقعه... فاغمضت عينيها وكان زفافها اشبه بمأتم!

كان لابد ان يقولوا شيئا..

كان يوما أسوداً في بيت خميني.. فقد قُتل تلميذه الذي لا يتردد في شنق اعـز الاصـدقـاء للبرهنة على الولاء، وتأخرت ايران رسميا في

الاعـلان عن ماحدث، ولكن خبراً من هذا النوع اكبر من التجاهل، فرئيس المحـاكم المـدنيـة، وعـدد من اعضـاء المحـاكم العسكـرية ومسـؤولون كبـار في وزارة الخارجية، وأحد عشر عضوا في المجلس ومسؤولو استخبارات الحرس قُتلوا مرة واحدة وهم يديرون جانبا من الغزو الايراني للفاو..

وكان لابد من اصدار بيان يبرز ماحدث، وهكذا، قالت ايران ان الطائـرة مدنية وليست عسكرية، وارادت ان تحوّل الاقطار عن غزو الفـاو، وتمتص الرفض الدولي لهجـومها الجديد وتحوله عن اهداف غزوها على البر، لكن احدا لم يستطع البرهنة على ان طائرة (-Fok ker, F.27) بانواعها (Mk. 100), (M / 600) و (M/ 400) و (M/700) ، وفصيلها المكمل (F.28) ليست غير طائرة نقل عسكرية يمكن استخـدامهـا في التـدريب واعمال المساندة لاغراض الطيران والبحرية. وتملكها للاغراض العسكرية عدة دول منهما (البيرو)، التي توجد لديها (٦) طائرات واحدة منها لاستخدامات التنقل العسكرية لرئاسة الدولة. و(السنغال) التي تملك (٦) طائرات اخرى مستقرة في مطار (داكار)، و(اندونيسيا) التي تستخدم ثمان منها، و(الفلبين) التي تملك تسعـا منهـا، كانت واحدة منها موضوعة لاستخدامات التنقل العسكرية للرئيس السابق (فرديناند ماركوس). اما ايران فقد زودّت قوتها الجوية باثنتين منها من نوع M600 وM400 لاستخدامات النقل و(سحب الاهداف). وزوّدت قوتها البحرية باربع اخرى، اثنتان منها من نوع (M400) والأخريان من نوع (M600) استخدمتا لاغراض النقل العسكرية، وقد استخدمت احداها في نقل شخصيات مسؤوله في مؤسسة عسكرية هي الحرس ولم يكن مقبولا الادعاء بانها

طائرة نقل مدنية بعد ذلك! ..

في (بيرو) تستخدم الطائرة في دوريات سلاح البحرية، وهي مزوّدة باجهزة استطلاع، وفي السنغال تُستخدم لاغراض المساندة، اما في ايران فان النوع الذي تملكه القوة الجوية من نوعي (400M) و (600M) ، فيستخدم للنقل العسكري (Trans) ولسحب الاهداف (Target tug) ، اما القوة البحرية التي تملك اربعا منها على الاقل، فعدا عن الاستفادة من واحدة منها لاغراض الشحن العسكري (Freight) ، فانها ايضا مجهّزة بنظام تصويب لالتقاط الاهداف: توضع معداته تحت الاجنحة. ولا يستبعد ان احدى مؤسسات النقل غير العسكرية كانت قد حصلت على واحدة منها او اكثر في عهد الشاه.

الا ان تلك المـؤسسـات قد أُلغيت وآلت ممتلكـاتهـا الى الجيش والحرس، وكانت المعلومات المتوفرة حتى ذلك الحين تشير الى امتلاك ايران لاثنتي عشرة طائرة من نوع (F.24) باعتبارها طائرة نقل خفيفة وجزءا من اسطول النقل العسكري للقوة الجوية.

وهكذا... اسدل الطيارون العراقيون في الاسبوع الاول من غزو الفـاو، الستـار الى الابـد على حيـاة احد تلامذة خميني ومساعديه المتخصصين في الارهاب... وتصدير الارهاب.

الهوامش

1- Air forces of the world page (159) (160).

2- Military Balance, 1973 - 1974 page (32)

# الفاو.. قطعة ملح صماء

بينما كانت ايران الغازية قد حرصت على تضييق نطاق المواجهة مع العراق في شبه جزيرة الفاو مع عمليات تعرض في القاطع الشمالي قرب (جـوارتـه) لاغراض المناورة والاشغال، كان العراق يجد في الجسد الايـراني كله هدفـاً متـاحـاً يتـرافق التعـرض الى مراكزه الحيوية العسكرية والنفطية والاقتصادية، جنباً الى جنب مع عملية حصر الغزو في الفاو وتدمير القوات التي وطأت المنطقة.

فوسّع العراق ضمن اطار الرد على الغزو الجديد، من مديات حركة الرد الشـامل ليلاحق اهدافاً في العمق، ليبرهن للايرانيين أن حصر المواجهة في جزء واحد من ساحة الصراع هو امر مستحيل، وان غزو جزء من ارض العـراق يكلف ايـران استحقـاقات تدفعها على مدى مسـاحتهـا كلها، ولذلك باشرت القوة الجوية العراقية بمسح شامل لايـران، تدمر حلقات حيوية تمد المجهود الحربي الايراني بمصادر تمـويله واستمـراره، جنبـا الى جنب مع عمليتي حصر الغزو وتدمير القوات الغازية، وهو مايسميه العراق (عملية تفكيك هيكيلة الاقتصاد الايراني ومؤسساته).

ولاحقت الطائـرات العـراقيـة اثنين من اثمن الاهداف الايرانية الطائـرة، كانت احـداهمـا طائـرة تنصّت نوعية، والثانية طائرة نقل عسكرية تنقل ثمانية واربعين مسؤولاً عسكرياً وسياسياً من طهران الى الاحواز في اطار دعم عملية غزو الفاو.

وقصفت الطائرات العراقية اهم مصفى ايراني واكبره على الاطلاق

على بعد (١٣) كيلومترا جنوب طهران قاطعة في الذهاب والاياب اكثر من (١٥٠٠) كيلومترا، لتحيله الى كتلة دخان يشم اهالي طهران هواءها الفاسد. وقيل ان ما القته الطائرات العراقية كان بحجم السيارة وقد ادى الى انتشار سحابة كبيرة فوق جنوب شرقي طهران لاول مرة في تاريخ المدينة، بعد ان بدأ اللهيب يلتهم المصفى الذي كلف بناؤه (١٦٠) مليون دولار وتبلغ طاقته التكريرية اكثر من (٢٢٠) برميل من الوقود. ورافقت تلك العملية التي انطوت على التحدي، غارات دمرت جسوراً استراتيجية تربط ايران بتركيا، وغارات اخرى سحقت ومجموعة معسكرات مهمة، وكان ذلك ايذانا، للبدء بالمسح الشامل في انحاء ايران، وتدمير مراكز الاتصالات وعقد المواصلات، والمعسكرات، ومراكز التحشد، والمصانع، ومصافي النفط، ومحطات الكهرباء، والموانيء، وارصفة تحميل النفط، والناقلات.

وبقدر مالهث الايرانيون في كل صفحة من صفحات الصراع الى تجزئة المواجهة على موضع واحد، كان العراق ينظر الى الصراع نظرة كلية لاتتجزأ، وحيثما يسعى المسؤولون الايرانيون الى حصر الصراع في زاوية، كان العراق يُكّبر دائرة المواجهة حيث تعجز ايران عن امتلاك ادوات كافية، او قدرة مناسبة لمواجهة مضاعفات ذلك. خاصة ان غزو الفاو، كان تجاوزا لخطوط حمراء رسمها العراق منذ انسحاب قواته الى الحدود الدولية في حزيران ١٩٨٢، وفي حين اراد الايرانيون ربط المتغيرات السياسية والعسكرية اللاحقة بوجودهم على ارض شبه جزيرة الفاو، فتح العراق سلسلة من الجبهات العسكرية والسياسية والاعتبارية ليصبح مصير اية متغيرات مرتبطاً بهذه المتغيرات كلها، وليس بجزء واحد فقط من عناصر المواجهة أو ساحاتها.

من هنا بدأ الصبر العراقي الصعب في التعامل مع تفاعلات الغزو

الايـراني للفـاو، فلم يستعجل العراق تنفيذ خطط تحريرها، رغم ان هاجس تحـريـر الفـاو لم يغبْ لحظة عن بال السيد الرئيس صدام حسين، وكان اول اجتماع قد ترأسه ليضع اللمسات الاولى وصولاً الى هذا الهدف، قد جرى في الرابع عشر من ايار (مايو) ١٩٨٦، اى بعد حوالي شهر واحد فقط من استقرار الموقف الدفاعي في الفاو، وتموضع الطرفين في المواقع الجديدة التي نشأت عن الغزو.

كان الرئيس صدام حسين يرى الصراع حالة كلية، تحدد النتائج فيها مجمل العوامل والتفاعلات، حتى مع استمرار الاحتلال الايراني للفاو، لان ذلك الاحتلال لم يكن غير جزء من حالة الصراع الشامل.

وكان الافتراض الصائب، ان اية تغيرات في المواقع على اجزاء من الارض في حرب طويلة لايغير من ناتج الصراع العام بين الطرفين وهذا الناتج هو حاصل تفاعل جميع عوامل الصراع في جميع ساحاته، وبهذه النظرة الواقعية تعامل العراق مع موضوع (الفاو) عند احتلالها وبعد تحريرها، حيث شرح الرئيس صدام حسين ذلك، في ذروة معركة تحرير الفـاو، عندما كتب بنفسه البيان العسكري الذي اعلن تحرير الفاو وعـالج فيـه الدروس المستقـاة من الحـرب الطويلة ذات الصفحات المتعددة التي لم يتعامل معها الايرانيون ولم يتحسبوا لها، فقال: «ان للحرب الطويلة قانونها، وان افرازاتها ومن بينها المكاسب العسكرية على الارض لاتأخذ طابع الثبات المطلق الا بقدر ارتباطها بحقائق اكبر منها، ومن ذلك مدى مشروعية التصرف مُقاساً على حقوق السيادة لاطرافها».

وعلى هذا الجزء من الصراع، موضوعاً ومكاناً، كان بالامكان إيلام الايـرانيـين، تحت مطرقة يومية من القصف الجوي والمدفعي الذي ارغمهم على استبدال القطعات من حين الى اخر، بسبب الانهاك النفسي

الذي يصيبها في مثلث يحيطه الماء من ضلعين ويحاصره العراقيون من الضلع البـري الوحيـد، مؤجلين تحـريـر الارض الى زمن واسلوب يختارونهما، بينما يحملون الايرانيين تبعات عبورهم الشط لغزو هذه المنطقة. وكان هدف العراق ان تتحول الفاو الى (قطعة مالحة صماء) لاتصلح للابتلاع، حين تحملت ايران كما اعلن الرئيس صدام حسين بعد تحرير الجزيرة (١٢٠) الف اصابة بين قتيل وجريح..

وبدأ العراق تفريغ الغزو من النتائج السياسية التي اراد الحصول عليها سواء في مجاورة الكويت وتهديدها، او اعتبار الفاو منطقة قفز لشن هجوم جديد على البصرة، او اتخاذ الفاو مركزاً لتأسيس دويلة صغيرة مجتزأة من العراق واقامة هيكل سياسي تابع لايران عليها.

وهكذا فتحت معركة غزو الفاو والتفاعلات التي لحقتها منازلة حول كفاءة فن ادارة الصراع بصفحاته المتعددة، بنفس القوة التي استفز بها الاحتلال، العراقيين، ودفعهم الى تحفيز العوامل المتاحة لديهم الى حدها الاعلى.

اذ ان اخطر اوجه الصراع كان يدور حول طريقة توجيه المواجهة واهـدافهـا وبـرامجها، حيث يسعى كل طرف لكي يسحب في اتجاه معاكس. ولايعني ذلك كما هو شائع، أنّ تصادم ارادتي الصراع، قائم على التناقض السياسي والايديولوجي معروف، اذ ان الجانب الاكثر تعقيدا هو مادار من صراع لتحديد صفة واسلوب المنازلة، بما يتناسب مع قدرة كل طرف، لذلك، ورغم احتلال الفاو عام ١٩٨٦ كان القول آنـذاك ان اتجـاه الصراع واسلوبه وصفته هي عناصر محسوبة في الضد، مما خططت ايران وسعت اليه.

فقد نجح العراق في منع ابقاء الصراع، في إطار مبسط ومسطح، ذي صفحة واحدة، وجعله صراعاً مركباً معقداً متعدد الصفحات، وبالتالي

فانه حول الصراع الى اسلوب يمكن ان تستوعبه كفاءة ادارة الصراع في العـراق، بينمـا تواجه مؤسسة ادارة الصراع في ايران اختناقات صعبة ازاءه.

ومنذ البداية، كان على الطرفين ان يدركا ان المنازلة طويلة ومركبة، ولكن الجانب الايراني كان مستعجلاً مأسورا بما وجده بين يديه من قدرات عسكرية تركها الشاه ومؤسساته، ومأخوذا بمعلومات وتحليلات ناقصة أوحت اليه ان غزو العراق، ثم احتلاله، سيكون عملا من النوع المبسط، فلم تخطط القيادة الايرانية في اتجاه صراع مركب، بينما اتجه العراق في ذلك المنهج منذ البداية، بكل ما يفرضه من صبر ومطاولة ونفس هادىء وطويل، وقدرة على تحمّل صعوبات حقيقية. وكان الحاكم الايراني يرى المستقبل على بعد اشبار من قدميه، بينما رأى صانع القـرار العراقي صورة المستقبل في المديين المتوسط والبعيد، وخطط باتجاهه وتحّسب له.

وفي الاسبـوع الثاني للحرب، قال السيد الرئيس صدام حسين، عبارته الشهيرة «ان اخر طائرة تحلق في سماء المعركة ستكون طائرة عراقية»، في وقت كان خميني ومساعدوه يتباهون غروراً بما وجدوه من طائرات كثيرة ومجهّزة في المخابيء والمطارات، وتصرفوا على اساس ماهو بين ايديهم، بينما اتجه العراق منذ البدء الى التصرف على اساس ما يجب ان يكون، فاختلطت الارادة القوية والشعور العميق بالثقة مع التخطيط الهادىء والقدرة على تحمّل المصاعب وتذليلها.. وهكذا كان. فبعد ست سنوات عندما وقع غزو الفاو، نجح العراق في البرهنة على ان دعوة صدام حسين، قد تحققت، وان ما خططله قد انجز والدنيا حرب والمنازلة مستمرة لم تتوقف يوما واحدا.

ان اكبر ملامح النجاح العراقي في الحرب قد تمثل في فرض نوع

الخيارات المتاحة امام الجانب الايراني، وتقليصها، بعد ان اصبح الصراع مركباً متعدد المستويات ومتعدد الابعاد.. وعلى نحو كان واضحاً في ذهن الرئيس صدام حسين، الذي اظهرت سنوات السلم والحرب كفاءته في هذه الزاوية من النظرة الى الحياة واسلوب تصريف شؤونها، على قاعدة تعدد الاحتمالات ووضوح الهدف، والقدرة العالية على الابتكار والاستنباط، والاستدارة على التحدي من الخلف، وتهشيم سقف الدار فوق الرأس المقابل، ونقل الازمة من نقاط التماس الى داخل البيت المقابل..

ويمكن عرض ملامح التحّول من الصراع المبسط ذي الصفحة الواحدة الى الصراع المركب ذى الصفحات المتعددة على النحو التالي:

اولا: في ميدان الصراع الاعتباري والنفسي والمعنوي، اعتمد الايرانيون على اسلوب التخفي وراء الدين، كما تعبر عنه ماكنة دعائية متخلفة الوسائل، بدائية التعبير، اسقطت تداخل الاعتبارات في هذا الجانب، وتصرفت بطريقة معاكسة للواقع الفعلي، عندما اظهرت ان (الاسلام) الذي عرضته هو النمط المشروع، وان ايمان الاخرين بدينهم هو محط شك وطعن، وبذلك وقع الايرانيون، مع الزمن، في فخ نصبوه للاخرين فابتلعهم انفسهم، اذ ان تمسّك العرب بمصادرهم الروحية عبر عن نفسه بصورة قوية، وصدق عميق لانه كان مستفزا، حتى برهن الزمن، واظهرت التجارب والمواقف ان الدعوة الايرانية، هي اقل من مستوى التعبير عن رسالة الاسلام، ورسالة اى مذهب فيه، وان هذه الدعوة ليست غير دعوة سياسية صرفة تتجه نحو التوسّع، والاحتلال، وفرض الارادة من الخارج على الاخرين، ولذلك دفع الأستعجال في كشف الاوراق، الى اظهار صورة ايرانية ملموسة ومحسوسة هي في الضد من الادعاء بالتمثيل الروحي، وجرّدت الايرانيين من أهم اسلحتهم في

الصراع، ولم يعد الكلام والتمني وغسل الدماغ قادرا على الحشد والتكتيل والتعبئة.. فلغسل الدماغ القائم على الوهم والتضليل، عمر قصير، وهو انسب ما يكون لمواجهة سريعة قصيرة الزمن، اما ان يُستخدم في حرب طويلة معقدة ومركبة، في المستويات والابعاد، فأنه ينقلب بآثاره على صنّاعه ودُعاته.. وقد بذل العراق جهداً هادئاً وصبوراً، ترك خلاله للايرانيين الحاكمين فسحات كافية لاظهار اطماعهم ونواياهم وحقيقة مواقفهم الى الحد الذي صار الادعاء بالتعبير عن رسالة روحية، اشبه ما يكون بنكتة.. وكان اهم مظاهر الفشل في هذا الجانب، هو تحوّل عدد كبير من الايرانيين عن دعوات حكامهم، واستجابتهم لمواقف العراق ودعواته، وبلوغ التضامن العربي مع العراق اقصى مدىً له بعد غزو الفاو، وظهور حركة فكرية قوية في العالم الاسلامي تنبه الى بطلان الادعاءات الايرانية.

ثانيا: في الميدان الأقتصادي، بدأت ايران الصراع في هذا الجانب منذ الايام الاولى (٤/٩/١٩٨٠) بمهاجمة المنشآت النفطية العراقية، وبلغت ذروة برامجها في التعاون مع حلفائها الاقليميين لفرض الحصار على تصدير النفط العراقي الى الخارج عام ١٩٨٢، واسقطت من حساباتها عوامل القوة الكامنة في هيكلية الاقتصاد العراقي، وحقيقة ان العراق يملك استعداداً ذاتياً على تحمّل المصاعب الاقتصادية وتجاوزها، وبينما كانت ذروة المخطط الايراني هي في السنة الثانية للحرب، عمل العراق على تقسيط الحصار الاقتصادي وتدريجه على ايران، بحيث تضيق الدائرة مع استمرار الحرب، وتتطور اساليب التدمير بالوسائل المباشرة وغير المباشرة الى الحد الذي يمكن معه توقّع مزيد من الخطوات، رغم ما الحقه العراق من أذىً عميق ومدمّر بهيكلية الاقتصاد الايراني ومصادر تمويل الحرب، ووقع الحاكم الايراني في

مزلق خطير عندما اعتمد سياسة تسويقية قصيرة النفس في بيع نفطه بأبخس الاسعار، حتى قبل انهيار اسعار النفط في السوق الدولية سنة ١٩٨٦ . في وقت نجح العراق،في فرض اعباء كبيرة على الجانب الايراني ليصبح المورد المتأتي من بيع النفط في ادنى مستوياته، بسبب اعباء التأمينات الباهظة، وتكاليف الناقلات المدمرة، والاغراءات المقدمة للسفن والناقلات الاجنبية، لكي تحمل النفط الايراني، والاضرار التي لحقت بالمنشآت النفطية الايرانية، الى مستوىً صار فيه النفط الايراني سلعة غير قادرة على الايفاء بتكاليف انتاجه وتسويقه اقتصادياً وعملياً.

واعتمد العراق في مقابل السياسة السعرية والتسويقية والانتاجية الايرانية برنامجاً تحسّبياً يقوم على مبدأ ان النفط ليس ملكا لهذا الجيل وحده، وان قيمته محفوظة سواء ظل احتياطيا او جرى انتاجه وتسويقه، وتوصلت الاكتشافات النفطية الى ان العراق اصبح يملك ثاني احتياطي نفطي في العالم قدره (مائة مليار برميل)، بعد ان بلغ التصادم اشده في السوق النفطية سنة ١٩٨٦ .. وهي سنة غزو العراق عبر الفاو..

وفي الجانب المالي خسرت ايران اموالا طائلة بسبب فساد اجهزة مشترياتها وبدائية وسائلها في ذلك، وهي تتبضع السلاح من السوق السوداء، وبعض الاطراف الدولية، كما حصل الامر نفسه في شراء البضائع الاخرى. وفتحت سوق ايران الساذجة شهية المسُوّقين الطامعين، من كل مكان، الذين افرغوا الاحتياطي الايراني.. واوصلوه الى اخطر مستوياته ضعفاً.

وفي الاعتبارات الاقليمية والدولية عمل العراق على نقل الصراع من حالته المبسطة الى حالته المركبة التي لايتمكن معها الحاكم الايراني

من التحكم في عناصرها وقد ضاقت عليه السبل.. بحيث صار الزمن عامل تعقيد واستنزاف يعمل في الضد منه.

ودخلت الحرب بعد الفاو في مرحلة جديدة من صراع الكفاءة، وفنية ادارة المنازلة في ابعادها النفسية والسياسية والعسكرية والاقتصادية، ولذلك فان مصير اية معركة منتظرة كان سيتقرر بموجب جميع عناصر الصراع، وهكذا كانت اليد الايرانية تبدو مشلولة، رغم كل ما يظهره الجوق الايراني من ضجيج يعبّر في الصراع المركب عن ضعف وتخبط ولحظة يأس وعجز عن الابتكار.

وعلى المستوى النفسي وآليته بلغ رئيس غرفة ادارة الصراع في الجانب العراقي درجةً يتمكن فيها من حساب آلية السلوك السياسي النفسي للجانب الاخر , فينظم سلسلة الافعال وانعكاساتها الشرطية، معتمداً على درايته بدواخل البيت الايراني واسراره، ومتخذا من خبرته المتراكمة في فن ادارة الصراع مرتكزاً لمعرفة الانعكاسات الايرانية ازاء اي فعل عراقي، متحكماً بالأفعال وانعكاساتها، كما حدث في خريف ١٩٨٦، حيث جرت عملية اختبار تتعلق بمحاولة جر ايرانية منظمة لاعادة حرب المدن. عندما صعّدت ايران تدريجياً عمليات قصف المدن والمناطق السكانية حتى بلغت ذروتها في قصف بغداد بالصواريخ بعيدة المدى وقتل اطفالها، وكان الانعكاس المنتظر، ان يرد العراق بحملة معاكسة في ضرب طهران بالطائرات والصواريخ، ولكن صدام حسين تمكن في رسالته التي لاتُنسى الى العراقيين «ان يبعّج البالون الايراني بابرة». كما يقول المثل، فيؤجل الرد، ويُعتّم على اتجاهاته المنتظرة، فنتج عن ذلك ارتباك في كامل المخطط الايراني الذي يتعلق أصلا بهجوم كبير كانت أحد حلقاته السحب فى أتجاه حرب المدن.

اما على مستوى الايقاع اليومي، فان السلوك اليومي الايراني يكاد

يكون مكشوفاً وواضحاً ومعروفاً لدى العراق، عبر ما يصدر من خطب واحاديث ومواقف، بحيث جرت اختبارات كثيرة في اطلاق افعال، او الايحاء بها ووضع صورة لرد الفعل الانعكاسي المقابل.. فكانت النتيجة مطابقة تماما للصورة المرسومة.. ويعود ذلك الى عاملين يتعلقان بالجانب الايراني هي: بدائية السلوك وسذاجته من ناحية، وعري الداخل الايراني وانكشاف اسراره، رغم كل ما يتظاهر به من انسجام او وحدة موقف او قدرة على الكتمان، لان تصميم التغلغل العراقي داخل البيت الايراني الحاكم.. قديم ومتراكم، ويزداد مع الايام اتساعا بسبب انضمام عناصر جديدة لمعارضة النظام وتنامي ارادة السلام والشعور بلا جدوى الحرب.

ان صياغة بيان سياسي او بلاغ عسكري في العراق تكاد تُحاكى من قبل الايرانيين بصورة مشابهة او شبه مشابهة لما يصدر عن الجانب العراقي، طبقاً لقاعدة ان الاضعف في اي صراع يتعلم من الطرف المقابل، ويحاكي اسلوبه وآليته، ولذلك أمكن دفع السلوك الايراني في اتجاه اساليب معينة، الى الحد الذي يُمكن به التحكم بهذا السلوك وآليته من داخل غرفة ادارة الصراع على الجانب العراقي. وتؤكد الاختبارات التجريبية والوقائع الفعلية ان منظومة (بافلوف) في تحريك الفعل وانعكاسه الشرطي كانت سائدة ودقيقة النتائج، وان نوعا من الاستجابة المحسوبة والمتوقعة، كانت تتم بما يشابه النتائج المتاحة لاجهزة التحكم عن بعد (الريموت كونترول) طوال الفترة التي تلت غزو شبه جزيرة الفاو.

هنا كسب العراق ما وصفناه من قبل بمعركة العقل، بعيداً عن الميدان العسكري الصرف، لان هذا الميدان كان محكوماً باشتراطات اخرى، ولكنها ذات آلية مشابهة،.. ورغم ان الايرانيين الذين يعلنون

عن برنامج للاحتلال والتوسع، هم الذين يحددون موعد وزمان هجماتهم، فيحصلون على امتياز تحديد ساعة البدء ومكانه، الا ان مستوى الاصطدام في الميدان العسكري لم يعد يتحدد بما يتيحه امتياز الاختيار الاول في البدء، لان مستوى المباغتة كان قد انحسر الى ادنى حلقاته، بعد الذي حصل في الفاو عام ١٩٨٦ من مباغتة واستغلال للغفلة.

# خطة الغاء العراق

لم تكن الفاو هي هدف الغزو لوحدها، ولم يكن احتلال شبه الجزيرة غير قاعدة للتوسع في اتجاه هدفين كبيرين هما ميناء (ام قصر) غرب الفاو ومدينة (البصرة) شمال الفاو، الا ان الصد العراقي العنيف لهذا الانتشار بعد قتال ضارٍ لم يتوقف على مدى اثنين واربعين يوما حصر الايرانيين في المثلث المالح، وقيّد برنامج التوّسع الذي يستهدف تقسيم العراق واجتزاء مناطق حيوية من ارضه بما فيها المدن الكبيرة، وتاسيس هيكلية سياسية، تخضع للادارة السياسية الايرانية، التي تعبر علنا ان طموحاتها لا تتوقف عند الفاو وحدها، ولاعند البصرة وحدها، ولا عند العراق وحده، ولذلك فأن أي اختراق في بر العراق طبقاً للمفهوم الايراني هو خطوة في طريق السيطرة على المشرق والخليج والعالم العربي ثم العالم الاسلامي..

وما كاد الغزو يستقر في شبه الجزيرة، حتى اتخذ الايرانيون من الاراضي التي وطأوها مكاناً لتنفيذ برنامج (الاجتزاء) على حساب ارض العراق وسيادته فعدا عن الفعاليات الاستعراضية، مثل اقامة العاب كروية في الفاو وتسليط اضواء الدعاية الايرانية على كل صغيرة وكبيرة تقوم بها قوات الغزو في المنطقة، تحولت انظار المسؤولين الايرانيين الى الفاو، وصاروا يتبارون في عدد الزيارات، التي يقومون بها للمثلث المحتل ويصطحبون خلالها وكلاءهم الذين اختاروهم واعدوهم لادارة اية بقعة من ارض عراقية يتمكن الايرانيون من الدخول اليها، حتى جمعوا حفنة متناقضة من سقطات التاريخ السياسي في العراق،

وحملوهم الى الفاو ليعاينوا على الارض امكانية ايجاد قاعدة في (المكان) لتأسيس هيكل سياسي خارج عن السيادة الوطنية العراقية، وكانت تلك الحفنة من الخارجين على العراق، خليطا من نماذج متناقضة، بعضهم من ارباب السوابق المطلوبين للعراق منذ عشرين عاما، واخرون من افراد التبعية الايرانية الذين سبق لهم ان اقاموا في العراق ردحاً من الزمن، ومنهم بعض مخلفات عهود سياسية سابقة اصبحوا في الخلف من الذاكـرة السيـاسية العراقية، ولم يتبق في حياتهمن غير تشغيل فعاليات دعائية متّكلة على اي طرف اجنبي مستعد للتمويل.. وعندما عاين الزوار القادمون من طهران وعواصم اوربية، ساحة العمل المعدة اصيبوا بخيبة امل، اذ وجدوا قطعة من ارض ضيقة، محاصرة، يتقلب ترابها كل ساعة تحت مطر من نار وحديد، تقذفه القوات العراقية ليل نهار، ولذلك لم تكن الزيارة غير عامل احباط مضاف يوحي باللاجدوى من ملاحقـة سراب يتشبث به قادة الحكم في ايران لتبرير استمرار الحرب على طريق الحلم الامبراطوري القديم (ابتلاع العراق).

على الجانب العراقي، كان ذلك كلّه مفردات في منهج توسعي لاتقف اهـدافـه عند حد، وهو الأمر الذي فَجَر عوامل تحفّز عميقة في اطار معادلة الحرب كلها: (التحدي والاستجابة...)، تحدٍ يقوم على مشروع الغاء العراق عبر تقسيمه الى دويلات واجزاء تابعة لايران، واستجابة بقبول هذا التحدي ومنازلته ودحره في معركة البقاء التي لا خيار فيه غير البقاء.

كان الخميني ونظامه يروّجان منذ تسلّم السلطة في ايران لبرنامج التقسيم الاستعماري الذي يمر بين عقد وآخر بمرحلة سبات، ويهدف الى تقسيم العـراق الى ثلاث دويـلات منفصلة على اسـاس مذهبي وعرقي، تخضع لارادة ايران، عندما تصبح هي الجار القوي الملاصق

لمجموعة دويلات هزيلة تستنجد بطلب الحماية كغطاء لمشروع ضم العراق، والغائه كدولة في الوجود، وتدرّجت الدعوات الايرانية على عدة مستويات بعضها يذهب به الخيال الطامع الى تقسيم العراق الى (ولايات) مستقلة في اداراتها، يتبع مركزها السياسي لايران، وتحرم من امتلاك الجيوش، او صياغة السياسة الخارجية، وتكتفي بمفارز من شرطة محلية، تقوم بأعمال محدودة مثل تنظيم حركة المرور، وهو مشروع يحاكي المشروع الاسرائيلي الخاص بالادارة الذاتية في المناطق العربية المحتلة.

ولم تكن اسرائيل غائبة عن هذا المشروع، الذي ترافق الاعداد له، منذ قيامها، وكان واحدا من اهم الملفات السرية التي وضعتها هيئة الاركان الاسرائيلية عام ٥٦ ـ ١٩٥٧ كما كشفت عن ذلك وثيقة (خنجر اسرائيل) طبقا للصحفي الهندي الشهير (كزانجيا).

لكن الموقف الاسرائيلي كان قد تطور مع المتغيرات الناشئة عن وصول خميني الى السلطة في ايران، ومباشرته العمل العسكري الواسع في اتجاه تحقيق هذه الاهداف، وقد بلغت الاستراتيجية الاسرائيلية الجديدة مستوى علنياً مباشراً للتصريح بتطابق النظرتين الصهيونية والخمينية حول مستقبل العراق كدولة، فبعد أقل من عام على انتهاء معارك الفاو، دعت اسرائيل الى العمل على (الغاء العراق) كدولة وكيان وكوحدة سياسية وبشرية، والحاقه بأيران، كما توضح ذلك الخطة التي كتبها الصحفي الاسرائيلي يهودا ليطاني ونشرتها صحيفة (الجيرولزم بوست) في ايلول (سبتمر) ١٩٨٧، وهي خطة تذهب الى مانصه «أن العراق كان جزءً من المملكة الايرانية الفارسية مرارا عديدة في الخمسة آلاف سنة الاخيرة، وان العراق هو كيان مصطنع، وليس لهذا البلد اي تأريخ حقيقي بأعتباره كيانا مستقلا». وبناء على ذلك دعت الجيرولزم

بوست الى اعتبار العراق جزءا من ايران، «اذ حالما يتم ضم العراق الى ايـران فسوف تتأسس دولة غير عربية في قلب العالم العربي وتهدد بوجودها جميع الدول العربية، ويحتمل ان تكون دولة ايران الكبرى، حليفـة لاسرائيل في هذه المنطقة»، وتذهب الصحيفة الاسرائيلية الى الدعوة صراحة بالقول «دعونا من الان فصاعداً نطلق على العراق اسم ايران».

ورغم هشاشة هذه الدعوة والمخطط الذي تقوم عليه وتقاطعها مع خصـائص التكـوين التـأريخي والجغرافي، ونتائجه، وتجاهلها لدور العراق ومكانته في الماضي العريق وفي الحاضر، الا ان اعلان هذه الدعوة يبرهن ان دعاتها يجدون العمل السري في اتجاه احلامهم ليس كافيا وان ابقاء الدعوة في درج الملفات الحمراء ليس مجدياً، اذ اتاح طول الحـرب واستمرارها، ان تنكشف سلسلة الاسرار والخفايا، واصبح الاعـلان عن برامـج العمـل جزء من السعي للوصـول اليها بهدف الترويج لها، واقناع الحلفاء بجدواها، وجدوى الاستمرار في العمل من اجلها، رغم سلسلة النكسات العسكرية والعملية التي واجهتها هذه الخطط، ورغم استحالة العودة بالعلاقات بين الدول الى النموذج الذي تتمناه ايران وتسعى اليه، لغرض ارادتها من الخارج على الاخرين، واحتلال أراضيهم وتأسيس امبراطورية من نماذج القرون الوسطى، في نهاية هذا القرن العشرين، على اساس ان الهدف هو العراق كله وليس الفاو وحدها.

وتقوم الخطة السرية السوداء التي يتبناها خميني لالغاء العراق «أن يُقسّم العراق بعد احتلاله الى دويلات صغيرة منفصلة عن بعضها تخضع للسلطة العسكرية الايرانية، وان يكون استثمار نفط العراق ملحقا بمؤسسات أستثمار النفط الايرانية، وان تحول الواردات الى

الميـزانيـة بعد ان تسمى (ميزانية النفط الاسلامية) وأن تحل اللغة الفارسية لغة للتعليم في العراق بعد احتلاله، ويدير الولايات المقسمة موظفـون يجتمعـون دورياً في طهران برئاسة مسؤول ايراني يعينه الخميني ممثلا عنه، اما اجهزة الا من فتكون جزءً من القوات الايرانية التي يصبـح لهـا معسكـر دائم في كل مدينة، ويدير منها فعالياتها العسكرية والامنية من خلال محاكم عسكرية لا يمكن للعراقيين ان يتمثلوا فيها، وتنحصر مهمات الشرطة المحلية المدنية في اعمال تنظيمية شكليـة، ويتم تجـريد جميع مناطق العراق مدنا وقرى من السلاح، وتُلغى الشخصيـة الدستـوريـة للدولة العراقية من حيث مكانها في المجتمع الدولي، وتقوم ايران بتمثيل كل مايمت الى العراق بصلة، من حيث العلاقات التجارية والمشاركة في المنظمات الدولية، وتصبح طهران عاصمة دولة جديدة تنشأ في المنطقة».

في الفـاو، بدأ التطبيق اليومي، على هذا الحلم الاسود في تمرين الضم والالحاق، الانواء الجوية للمدينة التي اعطيت اسم (الفاطمية) يُعلن عنهـا كمـا يُعلن عن مثيـلاتها في المدن الايرانية شيراز وتبريز واصفهان، اخبار الفعاليات التي تشهدها شبه الجزيرة تُلحق بنشرة الاخبار المحلية الايرانية، جسور تمتد واخرى تحت التشييد للربط بين ضفتي الشط، الفاو ترتبط بمنظومة الطاقة الكهربائية في ايران، ولولا عدم وجود سكان في شبه الجزيرة، لكانت المدرسة التي أُسست، قد فرضت عليهم ان يلتحقوا بها ليتلقوا دروسا باللغة الفارسية، هنا كانت العقدة التي تضيق على عنق الاحتلال، إذ لا احد هنا، لا سكان يُباشر عليهم منـطق الاحتـلال وقوانينه، بقايا بيوت، وبقايا بنايات، وبقايا منشـآت نفطية، لا شيء يمكن استثماره، حتى أملاح المملحات التي تتوسط شبه الجزيرة، وكانت قبل الغزو تستثمر للاستهلاك المحلي في

العراق، اصبحت بعد الاحتلال خط الدفاع الاول لدى قوات الغزو، بعد ان اتكىء الايـرانيـون على طوبـوغرافيتها المتخلخلة ذات الفجوات المائية، التي تمنع حركة الدروع، كما تعطل من حركة المشاة،... اذن لم يستطع الايرانيون ان يفعلوا اكثر مافعلوه بأستخدام شبه الجزيرة منصة للاطلال على عنق الخليج، وتهديد دولة، والتمتع بمرونة الحركة في مياه رأس الخليج، ونصب صواريخ ارض - بحر من نوع (سيلك وورم) على ارض الفـاو، واطلاقهـا من هنـاك بأتجاه الكويت، وبناء المواضع والتحصينات، وشق الترع والموانع المائية الاصطناعية وبناء السـواتـر التـرابية العالية، وربط الجسور بين ضفتي شط العرب، وتحويل كل جزء من شبه الجزيرة الى موضع وخندق، ولكن هذا كله لم يكن يلبي الهدف الكبير: (ابتلاع العراق والغاؤه)، فتحولت ارض شبه الجزيرة الى قاعدة لمدافع بعيدة المدى تقصف البصرة التي تبعد عن الفـاو (٩٦) كيلو مترا، ولقصف ميناء ام قصر الذي يبعد عن الفاو (٥٠) كيلو مترا، كما نُصبت على شبه الجزيرة منصات اطلاق صواريخ ميـدانيـة قصـيرة المدى وانتشرت في رجائها عربات اطلاق القاذفات الانبوبية الموجهة نحو التجمعات السكانية في البصرة وضواحيها، ولم يكن ذلك كافيا بالنسبة للغزو، فالهدف ظل نفس الهدف: احتلال العراق.

وبعد شهرين من هدوء الموقف العسكري في الفاو، رفع المسؤولون الايرانيون/ شعار عام الحسم/، وبدأت حملة تعبئة شاملة في ايران تحت شعـار «اذا كان بالامكان احتلال الفاو، فأن بالامكان احتلال البصرة واحتـلال بغـداد»، وكان هناك موعدان محددان لنهاية عام الحسم، الاول حسب التقـويم الميـلادي، والثـاني حسب التقـويم الفـارسي، ولم يتـردد المسؤولون الايرانيون عن الاعلان صراحة ان

اهدافهم لاتنتهي الا بأسقاط الكيان الدستوري والسياسي للدولة في العراق عبر احتلال المدن الرئيسة فيه، بدء بمدينة البصرة التي اقتربت من جهتها الشرقية قطعات ايرانية يزيد عددها على (٣٥٠) الفاً حيث دارت معارك طاحنة، التقى فيها الجيش العراقي والايراني في اكبر معارك الحرب قاطبة، مستخدمين افضل واعقد مالديهما من معدات عسكرية، واستمر القتال ليل نهار والتقدم والتراجع بحساب الامتار، ووقع الهجوم الاول في الرابع والعشرين من شهر كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٦ على جبهتي الفيلقين السابع والثالث، وبعد معارك ضارية انتهى الهجوم الى الفشل ليُحمّل ايران اكثر من اثنين وثلاثين الف قتيل، وعادت القوات الايرانية لتشن هجوما واسعا اخر في الثامن من كانون الثاني (يناير) ١٩٨٧ ضد قاطع الفيلق الثالث، وفي منطقة (بحيرة الاسماك)، واتبعته بهجوم في القاطع الاوسط في الرابع عشر من الشهر نفسه.

وقد اوقعت القوات العراقية اعلى مستوى من الاصابات في القوات الايرانية الغازية شرق البصرة حيث بلغت اكثر من (١٠٠) الف اصابة في معركة اشتهرت في العراق بمعركة (الحصاد الاكبر)... واستمرت التعرضات طوال الاسابيع التالية، وشنت ايران هجوما في السابع من نيسان (ابريل) حتى الحادي عشر منه، واستمرت التعرّضات حتى اواخر الشهر، حيث وقعت معركة (الميلاد الميمون) والحقت بالقوات الغازية خسائر تعذّر حصرها لجسامتها، كما لم يحدث في تأريخ الحرب.

وكانت ايران قد قامت منذ احتلال الفاو وحتى بدء هجوماتها الواسعة الشاملة في شرق البصرة وشمال شرقها وجنوب شرقها بسلسلة من الهجمات، الاول كان في منطقة چوارته/ شمال العراق يوم ١٨

شباط (فبراير) وكانت معارك الفاو ماتزال مستمرة، والثاني في /منطقة كردمند/ في السادس من ايار (مايو) ١٩٨٦، والثالث في منطقة (حاج عمران) شمال العراق في الاول من ايلول (سبتمبر) ١٩٨٦، والرابع على القاطع الاوسط فلي التاسع عشر من شهر ايلول (سبتمبر)، ثم شنت ايران تعرضا كبيرا على (الميناء العميق) في الثاني و العشرين من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) من العام نفسه، وبذلك بلغ عدد الهجومات التعرضية في الفترة التي اعتبرتها ايران زمنا كافيا لتحقيق شعار عام الحسم، (أحد عشر) هجوما واسعا، كانت الاكبر والاوسع فيها على الاطلاق هي الهجومات التي وقعت شرق البصرة.

وانتهى عام الحسم بالتقويم الميلادي (١/١/١٩٨٧) وعام الحسم بالتقويم الفارسي (٢١/٣/١٩٨٧)، وتكبدت القوات الايرانية اصابات تجاوزت مائتي الف اصابة، دون ان تحقق اهداف الغزو للوصول الى مدى العراق واحتلالها.

وبذلك برهنت الشهور التي اعقبت غزو الفاو استحالة الوصول الى الهدف الايراني الاسود، وبرهن العراقيون ان الوجود الايراني على ارض شبه جزيرة الفاو هو حالة مؤقتة، وقد تحقق في ظروف غير طبيعية وبعوامل غير طبيعية، وهو الاستثناء في سياق الصراع العام الذي حُسمت ارجحيته لصالح العراق.. ولم يكن هناك غير انتظار الساعة التي يعطي فيها القائد صدام حسين اشارة البدء بأنتزاع الارض العراقية من غاصبيها... وهكذا كان الموعد مع الزمن.

# انطفأ الحماس

«عزيزي خسرو... نحن بشوق اليك.. أليس في نيتهم ان ينقلوك من الفاو نحن بحاجة اليك... لقد اخذوا اخي بهزاد من المدرسة والحقوه بقوات البسيج، امي ستعمى من كثرة البكاء، امس جاؤا بخمسة قتلى من كردستان، ارجو ابلاغ صديقك سيروان كاظمي ان اباه قد مات، انا مشتاقة اليك، متى سنتزوج..؟

اصفهان/

من المخلصة ربيعي

اراك تحدثيني عن الموت... ان ما أحتاجه هو حديث عن الحب... إلا يكفيني الموت الذي يحيط بي من كل جانب هنا..

الفاو/

من المخلص خسرو

عزيزي خسرو... الموت قبل الحب، وانا مذعورة، أنت ستقتل، وامي ستعمى، واخي سيموت، هل تذكر كيف قتلت زاهرة، يوم ارادت الدخول على الامام تحمل رضيعها الملغوم، فأكتشفها الحراس، كانت تريد ان تقتل الامام، فمزقوا جسدها وجسد رضيعها بالرصاص.

انا مشتاقة اليك، وخائفة فمتى سنتزوج..؟

اصفهان/

من المخلصة ربيعي

ترك خسرو كريمي مسّودات رسائله ورسائل خطيبته (ربيعي) قرب دروق ماء يغلي، وخرج من موضعه، قدماه تسابقان بعضهما للوصول الى حافة شط العرب، سيتذكر كل كلمة قالتها (ربيعي)، الموت من كل جانب، وهـو يتسـابق مع الآخـرين للأمساك برأس جسر يأخذه الى الضفـة الشرقيـة لشـط العرب، وصل رأس الجسر، لكن الجسر كان مهدما، ركض صوب المراسي التي بناها الايرانيون للزوارق الصغيرة، كانت الزوارق قد سبقتـه وهي مليئـة بالهاربين، صارت وسط الماء، قذائف تتسـاقـط عليهـا وحـولها، بعضها ينقلب بمن فيه الى الماء، وبعضها يبتعد.. القى خسرو بنفسه في الشط، وكانت الدنيا تهطل نارا ورصاصا. وبعد اربعة ايام عثر الصيادون في ضفاف شمال الخليج على جثث طافية، بينها جثة جندي ايراني اسمه خسرو كريمي بور.

قبل اربع سنوات من معركة تحرير الفاو، ذكر جنود ايرانيون وقعوا في الاسر خلال معارك شرق دجلة «انهم يعتقدون ان من يمس شخص (الامـام) بسوء، يصاب بالجذام، وتظهر علائم ذلك على جسده وفي وجهه، فيعرف المحيطون به، انه آثم وفاسد ويستحق الموت»، اما في الفـاو، فكـانت رسائل الجنود مع ذويهم تتحدث بأعجاب عن ارملة جنـدي ايـراني قتيل تدعى (زاهرة) كانت قد طلبت في سنة الحرب الاولى، مقابلة خميني لتقدم له طفلها الرضيع لمباركته، وعند عقبة مكان جلوس خميني، فتشها الحراس، فوجدوا ان الطفل كان ملغوما بحشوة شديدة الانفجار، وقد ربطت بزر في ساعة أمه، فسحبها الحراس مع رضيعها ومزقوها واياه برصاصهم.

من يومهـا، بدأت صورة خميني تتهشم في عيون الايرانيين، بعد اشهـر اكتشف الايـرانيـون ان هناك من يخطط لاستخدام مدرسة للبنات قريبة من قصر خميني في جماران في تنفيذ عملية اغتيال مدبّرة،

فأغلقوا المدرسة وحولوها الى مقر للحرس، واصبحت هذه القصص موضوعات رسائل الجنود وذويهم التي تفوح بالتحريض ضد الرجل الذي بنى حول نفسه هالة بدأت بالتلاشي والاضمحلال مع مرور الزمن.

وقد افرزت معركة تحرير الفاو واحدة من اكبر المتغيرات في الحرب، تتعلق بأنطفاء جذوة الحماس الديني الثوري في القتال ضد العراق، واضمحلال تشبث المقاتلين برمز السلطة الدينية والدنيوية المتمثلة بشخص خميني، فما كاد الهجوم يزداد ضغطا وقوة، حتى تشبث الايرانيون برأس جسر يلوذون به للهروب الى الضفة الشرقية، بعد ان صارت ايران كلها بحاجة الى جسر مفتوح للهروب، للخروج من احساس بالعدم والفناء، يخيم عليه انطفاء في الحماس وشعور جماعي باللاجدوى.

وقد ابقى العراق احد الجسور الاربعة، التي تربط بين ضفتي شط العرب، مفتوحاً اطول فترة في الساعات الخمس والثلاثين التي استغرقتها عملية تحرير الفاو، لاعطاء اللاهثين وراء التراجع والهروب فرصة تعادل حاجة الايرانيين لمن يساعدهم على التحرر من انفسهم ومن اوهامهم.

مَن امسك برأس الجسر، ولم تمزقه القذائف بلغ الضفة الاخرى، ومن لم يفعل سبح في الشط، فأما ابتعلته فجوات الماء والغامه، أو غطس في الاعماق الطينية واصطدم ببقايا اسلحة وقوارب مدمرة في قاعه، وغيرهم امسكوا بزوارق صغيرة ليعبروا الى الضفة الاخرى، فاما من بلغها.. فقد كان نصف محبط، نصف منهار، نصف حي، لايكاد يلتقط انفاسه حتى يروي الحكايات عن هول ماوقع بعد فشل اكبر خطة ايرانية لغزو واحتلال ارض عراقية خلال الحرب.

وبرهنت معركة تحرير الفاو، ان ما يتمع به المقاتل الايراني ليس شجاعة بل انقيادا متأتيا من الخضوع لسلسلة من عمليات غسل الدماغ المتتالية، اوحت للايرانيين بوجود (واجب ديني) يفرض القتال لبناء امبراطورية اسلامية تكون ايران مركزها في العالم، ولا يلبث مثل هذا المقاتل أن ينهار مع شدة الصدمة التي يتعرض لها بوجود مقاتل مقابل ينشر الموت في خنادق الايرانيين ويفرض على المقاتل الايراني ان يعود الى دوافعه الغريزية الطبيعية... حيث الموت موت، والخوف خوف، مع شعور متراكم باللاجدوى والعجز عن الوصول الى النصر الموعود، بعد ثماني سنوات سقط فيها مئات الالوف من الايرانيين في حرب لا نصر فيها.

في السنوات ١٩٨٢ و١٩٨٣و ١٩٨٤و ١٩٨٥ كانت ايران قد شنّت اربع عشر هجوما رئيساً، وست هجمات ثانوية على الاقل، بينها اربع هجمات واسعة واساسية على الجنوب، واستخدمت في كل مرة تحشدات بشرية تزيد على المائة الف مسلح وتقل عن ربع المليون من عسكريين نظاميين وشبه نظاميين (جيش، حرس، بسيج. ثم الافواج الخاصة للانتحاريين المدربين أصلاً في معسكر منذرية الخاص بتدريب فرق الارهاب المعدة للعمليات الخارجية..) وقد سعت في جميع الهجمات الى احتلال ارض عراقية، والوصول الى أي هدف تعبوي ثمين يمكن جعله مرتكزا للتوسع في الغزو، والسيطرة على مدن رئيسة، او التحكم بطرق المواصلات الدولية.

وكان على الجمهور الايراني في كل مرة ان يتلقى الامر اليومي من مؤسسة الحكم في ايران، التي تديرها اتجاهات متصارعة متعددة الاقطاب والمستويات، ضمن مؤسسة تبدو في الظاهر واحدة يعبّر عنها

اصناف من الملالي والاخوندية، ذووي المعرفة المحددة يتلبسون بروح المبالغة ويتشبثون بوسائل السلطة وادواتها وميزاتها الدنيوية التي يزهد عنها رجال الدين عادة.. تسعى مؤسسة الحكم الى تهيئة الجمهور نفسيا، وتجمع اشتات الشباب والفتيان، الذين غادروا او يغادرون مابقي من مقاعد الدراسة، او العمل، وينتقل الالاف من مصاطب الانتظار في قوافل العاطلين عن العمل الى حافلات نقل الجنود، ليدخلوا في الفرق النظامية وغير النظامية...وهي فرق كانت تتهشم في المعارك التي سبقتها، فيعاد بناؤها تسليحيا بما يمكن جمعه من سلاح، وبشريا بالحاق المتطوعين والمجندين الجدد، وهم بين مكرهين ومضطرين ومتورطين وموهومين، والاهم بينهم اولئك الذين بلغوا لحظة اختلال التوازن، فتلاشى عندهم الاحساس بقيمة الحياة وراء عذاباتها والشعور بالخسارة المسبقة فيها، فأصبحت الحياة قرينة بالموت، ولم يبعد التوجه الى الجبهات غير خلاص من سقطات في مسيرة حياة شخصية او عائلية، او خلاصا من قبر كبير معتم يمثله الاطار العام لما آلت اليه الحياة اليومية في ايران.. فحين يقارن احدهم بين وعود مابعد الموت وبين مايلمسه من موجودات الحياة، بفضل صورة الوعد الذي لم يجربه، لان ماجربه، او يجربه في الحياة لا يستحق ان يحتفظ به، رغم ان هؤلاء ليسوا من المتدينين بل على العكس فأنهم انفسهم (الجيل الآثم) الذي ذكره (الخميني كثيرا، واعتقد ان الحرب افضل / فرن/ يتطهرون من خطاياهم)... وهؤلاء يمثلون نسبة كبيرة من الافواج الجديدة التي تخضع لتدريب محدود بين عشرة الى عشرين يوما قبل ان تحلق بالجبهة فلا يتعطل وراءهم برنامج في الحياة كان يستحق ان يتشبثوا به ويعيشوا من أجله.. وهم عادة، كما هو مفسر في علم النفس، وعلم السلوك النفسي، وعدميون في

الدافع، وعدميو ن في الهدف..

وهنا يتساءل الكثير عن هذا التحول في نوعية المقاتل الايراني، اولم يكن هو المقاتل نفسه الذي يندفع في السنة الاولى للحرب فوق حقول الالغام يفجر نفسه طلبا لـ(الشهادة) ولـ(رضى الامام)، ولماذا انحسرت حركة التعبئة ومستواها في ايران، بعد ان كان بالامكان جمع مئات الالوف من المتطوعين في بضعة اسابيع، اصبح عسيرا جمع بضعة الاف في شهور، وازدادت اعداد الهاربين من القوات المسلحة الايرانية، وتضاعفت اعداد اللاجئين منهم الى العراق، والملتحقين بصفوف المعارضة الايرانية، وصاروا في ساعات الالتحام مع القوات العراقية يبحثون عن (رأس جسر) للهروب..؟

انها المسافة تتسع بين الوعود والمتحقق منها، وبين المثال والواقع، فقد انقلب الحكم الثوري الى كابوس، ووقف موسوي اردبيلي رئيس القضاة بعد تسع سنوات من الحكم ليعلن (ان ايران بلاد بلا عدالة.. وانها عاجزة عن التوفيق بين جنوب طهران الفقير، وشمالها الغني)، او كما يقول مهدي بازركان اول رئيس وزراء في عهد الجمهورية (ان الثورة لم تبن غير القبور)، فقد مرّت السنوات، ووجد المستضعفون انهم ازدادوا ضعفاً ووجد الفقراء انهم أزدادوا فقراً، وتحملت البلاد مآسي وكوارث صنعها الانسان الحاكم، فبلغ التضخم اعلى مستوى في تأريخ ايران المعاصر، وتجاوز قتلى الحرب المليون، عدا المشوهين والمعوقين والمفقودين والاسرى، وتجاوز عدد الهاربين الى الخارج مليونا اخر معظمهم من النخبة المتعلمة الاكثر تأهيلا من اطباء ومهندسين واساتذة وحرفيين.. أهذا هو الحلم الذي راود الايرانيين، وهم يتطلعون الى طائرة (الايرفرانس) وهي تفتح ابوابها ليترجل الخميني فيحملونه على الاكتاف ويهتفون له، ويسيرون وراء مشروعه في الحرب لغزو

العراق، وبلاد العرب والمسلمين؟... أمن اجل كل هذا ترمّلت النساء وتهدّمت البيوت وجاعت الناس؟

لقد حصلت الفجوة الحاسمة بين المثال والواقع، والاهم فيها، هو تلاشي رمـزية خميني، وتحوّل صورته لدى الايرانيين، من رجل دين رسالي معصوم من الخطأ، الى رجل سياسة دنيوي ، يرتكب الاثام التي يرتكبها الحكّام، وانقلبت صورة رجل الدين السمح، التي تشبث الناس بهـا، الى صورة السفـاح، او كمـا يعتـرف الايرانيون، أنهم وجدوا انفسهم في الشهر الاول امام رجل يفتي لهم بشرعية التوضوء بدماء القتلى الذين يعـدمـون بسبب عدائهم للثورة أهو النبي أم سفاح؟ رسولي أم مصاص دماء؟

يومها كان هناك من يسأل العراق لماذا لم يعمد الى القضاء على حياة خميني في بداية ظهوره .. ولماذا امهله زمنا طويلا قبل ان تباشر القوة الجوية العراقية بمهاجمة مقر اقامته للمرة الاولى بعد خمس سنوات من بدء الحـرب؟ «في الخامسة من صباح ١٤ آذار (مارس) ١٩٨٥ حلقت الطائـرات العـراقيـة فوق جمـاران واطلقت صواريخها التي سقطت على بعد مائة متر من مخدع خميني.»

كان الانتظار الصعب قبل ذلك هو ان يتجرد خميني من اغطيته... وان يهـزم في بيته، وفي طروحاته.. وامام نفسه، وامام اتباعه، وازاء برنامجه، بعد ذلك ليصبح موته حدثا عابرا ولو حصل ان مات خميني، او قتـل، قبـل ان يتحقق ذلك، لكان تحول الى رمز مدفون بغوامض نواياه، وتشبث المعذبين به.

والظريف ان الايـرانيين بلغوا من الصراحة ان يكشفوا في السنة التاسعة لحكم خميني انه لم يكن مقبولا حتى من امرأته السيدة يتول التي اقترن بها، فأنجبت اولاده، اذ طبقا لما ترويه، ابنته (مصطفوي)

ـ في ١٨ / ٢ / ٨٨ حديث لوكـالة الانبـاء الفرنسية، فأن امها رفضت الاقتران به عندما تقدّم يطلب يدها، وان الزواج لم يكن ليتم لولا حلم حل بمنامها، لامها فيه زوار حلمها لعدم موافقتها، فقبلت في اليوم التالي رجـلا كانت قد رفضتـه في اليوم السابق، ويتخذ الايرانيون، الذين يرددون هذه الرواية كمثال على حقيقة احتاجوا تسع سنوات من حكم خميني ليكتشفوها ويجعلوا منها اشارة على عدم اقتناع اقرب الناس اليه، وهو أمر يفسرون به الانفصام الذي وقع، او يقع بينهم وبينه بعد أن كانوا الاتباع المطيعين.

مثـل هذه الروايـة، وسلسلة من النكـات الشعبية، كانت تهدف بصورة عفوية الى التدمير الرمزي للسلطة، وهو اخطر ماواجهه خميني من تحد داخل ايران، وتذهب نكتة شائعة في ايران، ان الحكومة قررت السماح بالسفر الى الخارج، فاندفع خمسة واربعون مليون مواطنا (سكان ايـران) الى مكـاتب السفر، وهناك وجدوا خميني ومعاونيه يقفون في طوابير المسافرين فعاد الايرانيون الى بيوتهم، فسألهم خميني: لماذا غيروا رأيهم وعـدلوا عن مغادرة ايران، فأجابوه/: اننا نريد مغادرة ايران لانك فيها.. اما اذا غادرتها فأننا باقون ولن نسافر..

انفـرط عقـد الزعامة الدينية المحيطة بخميني، فقد مات آية الله طالقاني احد اكبر قادة الثورة ضد الشاه، في ظروف غامضة، بعد سنة من سقـوط الشـاه، وقتـل آيـة الله بهشتي في انفجـار مقر الحزب الجمهوري الاسلامي الايراني ضمن حرب التصفية المتبادلة، وجاهر آية الله شريعة مداري، اكبر الزعامات الدينية في ايران، بخلافة مع خميني، ففُرضت عليه الاقامة الجبرية، وطورد ابنه (حسن) الهارب خارج ايران، حتى توفي شريعة مداري عام ١٩٨٥، وفرضت الاقامة الجبـرية على اية الله محمد طاهر خاقاني اكبر الزعامات الدينية في

الاحواز، وأُسيئت معاملته، فأُصيب بالعمى، واعلن اية الله طبطبائي قمي عن تكفير خميني وابتعاد سلوكه عن الاسلام، فأعتقل هو وابنه عام ١٩٨٧، ولم يبقَ غير إثنين من كبار رجال الدين هما اية مرعشي نجفي واية الله كلبايكناني، وكلاهما انزوى بعيدا عن النشاط السياسي بعد ان اختار خميني رجل دين من الدرجة الثانية هو آية الله منتظري ليكون خليفته المعين بعد موته.

وقد وقع نجفي وكلبايكاني بعد استعادة العراق لشبه جزيرة الفاو على رسالة مفتوحة موجهة الى خميني دعياه فيها الى وقف الحرب محذرين مما بلغته اوضاع ايران من تدهور اقتصادي وحالة يأس من استمرار الحرب مع العراق. وبذلك تحلل العقد الذي يمنحه شرعية الزعامة الدينية، واظهرت سنوات الحكم افتراقا عميقا بينه، وهو الذي يمارس السلطة، وبين رجال الدين الذين كانوا يقيسون سلوكه بحساباتهم فيجدونه سياسيا خارجا عن القواعد والمبادىء، كانوا قد قبلوا به من قبل ليتقدمهم، على امل اعتمادها وتطبيقها.. اذ ان أيران صارت تحكم من قبل ابنه احمد، الذي تورّط في عقد الصفقات السرية مع اسرائيل، بتشجيع ومشاركة من هاشمي رفسنجاني، وهو سياسي ميكافيلي يتحيّن الفرص للفوز بأكبر دور سياسي في الجمهورية الاسلامية، رغم انه يُعد من الطبقة الخامسة لرجال الدين في ايران.

وبهذا التحلل، بقى في ايران رجل واحد، ليس له مؤسسة تمنحه الشرعية، وهو يتحمل في الحاضر والمستقبل تبعات السياسات التي اختارها دونما غطاء من المؤسسة التي خرج منها، حتى ان الحزب الجمهوري الاسلامي، وهو التنظيم السياسي الذي استندت اليه السلطة الايرانية، لتكوين قاعدة شعبية منظمة، قد ذاب في يوم واحد، بموجب قرار اصدره الخميني حل بموجبه هذا الحزب عام ١٩٨٧، ولم

تبق غير بضعة دكاكين سياسية منقسمة الولاء بأتجاه مؤسسات مثل الحرس والجيش والبرلمان والادارة، وبأتجاه اشخاص متنفذين مثل رافسنجاني وخامنئي واحمد خميني ومنتظري، وهم جميعا كمؤسسات وافراد، لا يشكلون قاعدة للتكتل الاجتماعي والسياسي في ايران بسبب ضعف عنصر الديمومة، وحالة التجاذب والتنازع، التي تسود علاقات الافراد وعلاقات المؤسسات معا.

ويبدو من استقراء الانفراط المتتالي من حول خميني، ان انسحاب البعض وابتعـادهم عنـه، وتـركه وحيدا ليتحمل المسؤولية، والمبالغة الدعـائية في رد كل الامور التي يُختلف عليها اليه، بما فيها شؤون الوزارات، والمشكلات الدستورية والقضائية والاقتصادية، الى جانب مسـألة الحرب، سيؤدي، سواء كان ذلك امرا منظما او لم يكن، الى حصر المسـؤوليـة التأريخية بشخص خميني، وهو امر يجعل الباب مفتوحا، امام الاخرين لاستعادة ادوارهم السياسية في مراحل لاحقة، وهم لكي يتمكنوا من معاودة اداء اي دور سيكونون ملزمين بنقد تجربة خميني وتهشيم رمزية دوره، وهو مايفسر اعلان بعض رجال الدين عن مضمون رسائل النقد واللوم التي وجهوها الى خميني، كما حصل لآية الله طبطبائي قمي وآية الله مرعشي نجفي وآية الله محمد كلبايكاني، لانهم يريـدون تبـرئـة انفسهم من القرارات التي يتخذها خميني، وخـاصة موقفه من مسألة الحرب، عدا ما ينطوي عليه الاعلان عن مضامين هذه الرسائل من تحدٍ علني للسلطة، وعدم التهيب في اظهار الاختلاف مع مواقف خميني وقراراته.

على العكس ممـا يتصـور بعض المحلّلين الغـربيـين فأن حشود العـدميـين لا تمثـل خطرا في الميدان العسكري الحديث، فعدا عن

محدودية القدرة على تدبر شؤون الصراع المعقد في الميدان، فأنها من الناحية المعنوية تقاتل في مناخ مُضبّب لا يجري فيه التمييز بين الخيار الصواب والخيار الخطأ، حتى اذا جرح احدهم، وبدأت الآم جسده تمزقه ... يتحول الى آحد موقفين: إما الاجهاش ببكاء مرير، او الوقوع في ذهول مختلط بالآسى العميق والخيبة المرة، وهي صورة مئات من الاسرى، الذين نجوا من مذابح معارك الفاو وتسنى لنا مقابلتهم في ساعات اخلائهم الاولى ١٩٨٦، أو اولئك الذين اذهلهم الهجوم العراقي لتحرير الفاو في الأسر في نيسان ١٩٨٨ ... ورغم انه لم يتم التأكد من حقن أي منهم بعقار طبي، الا ان الصورة التي ينتهون اليها فجأة من الاندفاع للقتال الى الانهيار الفجائي وكأنهم يظهرون للمرة الاولى رغبة في الحياة، توحي بأن عاملا تحذيريا بدأ بالتلاشي مرة واحدة فيزول تأثيره ويفيق الذين تجرعوه ليتلمسوا جرحا صغيرا فيشعرون بهول ماوقع وكأنهم يفيقون من اثار غسل دماغٍ موقت..

ان من الواقعي اسقاط عامل (الحماس الديني) لان الالحاح في الحديث عن هذا العامل يجري بدافع سياسي، اكثر مما يكون وصفا لحاله موجودة في الميدان فكثيرا ما أظهر المقاتلون الايرانيون ثقافة دينية ضعيفة ومعلومات هشة وجهلا في امور تعتبر اولية وابتدائية.. وقبل معركة تحرير (الفاو) وخلالها، تسنى لنا معاينة الاسرى الايرانيين المنقولين من خطوط النار.. كنا أمام نماذج متنوعة من ذوي الفئات العمرية الشابة الذين تتراوح اعمارهم بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين، يكادون ينقسمون الى ثلاثة اصناف تندرج تحت ما يوصف بـ(استلاب الكرامة الفردية) اكثرهم تدينا أقل معرفة بشؤون الدين من تلميذ يتلقى معارفه المبكرة في اصوله..

الصنف الاول: وهو عادة الاصغر عمرا، مسلوب في كرامته

الشخصيـة، اذ روى البعض قصصـا عن معـرفته بتعرض والدته للاغتصـاب من قبـل اشخـاص متنفذين في قريته او مدينته، بينما اعترف اخرون انهم انفسهم تعرضوا للاستباحة وتحولوا الى مخادع لاستخـدام عناصر ذات نفوذ في محيطهم الاجتماعي، وذكر اخرون حالات ناشئـة عن خراب أسري بعـد مقتل رب العائلة وانتقال الام لتصبح زوجة متعة لبضعة ايام ثم تنتقل من رجل الى اخر من الحرس والمـلالي، وأقـرّ البعض منهم، انهم كانـوا يعـاينـون تلك المشـاهد ويتجرعون مرارتها فيسقطون في لوثة الاثم والعار الشخصيين.

الصنف الثـاني: جاء الى طوابـير المتطوعين او المسحوبين للقتال بدافع الجوع، والجوع هنا حقيقي، وليس صفة متوسطة الدلالة، إن البعض يعترف بأنه لم يكن قادرا على جمع مال يوفر له غذاءه اليومي، خاصة ابناء اللاجئين الذين نزحوا الى مدن الداخل، ومن اهالي جنوب طهران، ومن القرى، «ان الحياة لا تساوي شيئا تأسف لخسارته»، وقد تكـون مؤسسـة الجيش النظامية او مؤسسة الحرس افضل مكان للحصول على الطعام والغطاء الاجتماعي الذي لم توفره مصادر الحياة الاخرى. وهؤلاء عادة اكثر قسوة من سواهم، وهم اقرب الى صورة العدميين الذين لا يفرقون بين الوان الاشياء المحيطة بهم.

الصنف الثالث: يتمثّل بالعناصر المسحوقة بعامل ظاهر، ابرز من العاملين السابقين هو الجهل، والتعصب، وهم ضحـايا درس الجغرافيا، إذ انهم يقاتلون على أمل ان تنفتح ابواب (كربلاء) على الضفة الغربية من شط العرب، وهم يتصورون ان البصرة على بعد مئات الامتار، وان ـ بغـداد على مرمى مدافعهم.. ولذلك استسهلوا المجيء الى الجبهة تحت ضغـط التعصب وعـلى امل (الدخول الى المدن المقدسة بدون جوازات سفر). ولكنهم لم يتوقعوا ان يروا المذابح التي تعرضوا لها،

لانهم يفترضون (ان العراقيين مغلوبون) بعد ان وضعوهم في خانة (اعداء الاسلام) وتصورهم سلاطين لا تجيد القتال، وهؤلاء في العادة اكثر النماذج سرعة في الانهيار والاصابة بحالة هستيرية او الذهول، كما حدث لاحد الاسرى في الفاو وهو يراقب ثلاثة جنود عراقيين وقد فرشوا الارض على بعد ثلاثة كيلومترات من المملحة ليصلوا صلاة المغرب بعد ليلة ونهار داميين.. فقد فوجيء بأن العراقيين الذين قاتلهم يصلون.

وقد برهن القتال الشرس في معارك (الفاو) عام ١٩٨٦ ان المقاتل العراقي يتفوّق على المقاتل المقابل، في روح الفداء والاقتحام، التي تمكن بها أن يطوّق الغزو الايراني للفاو، ويُضيّق عليه، ويمنعه من الوصول الى اهدافه اللاحقة في طريق الحلم الاسود نحو البصرة شمالا، وأم قصر والحدود الكويتية غربا.

إذْ كان هناك تداخل في المواضع، في خط تماس مهتز وغير مستقر، وغير دائم ايضاً، بالنسبة للغزاة لانهم يدخلون ارضا لم تكن مصممة للعمل العسكري، وبالنسبة للعراقيين لانهم صاروا يقاتلون في ارض ومستنقعات مائية كانت قبل هذه المعركة خلف الخطوط الدفاعية المبنية لخوض قتال الدفاع والهجوم، وهو الامر الذي جعل العراق متمسكا بمبدأ عدم اتاحة الفرصة للايرانيين لتحويل مواضعهم المهتزة المؤقتة الى مواضع دائمة، ولذلك لم يكتفِ بالسدود النارية الحارقة والمدمرة، انما لجأت الوحدات العراقية الى تنفيذ عمليات اغارة وتسلل في الخلف ذات طابع فدائي اقتحامي، حيث هبطت وحدات المغاوير والقوات الخاصة على رؤوس الايرانيين وقاتلتهم رجلا الى رجل وحربةً بحربة، لتقتلعهم من مواضعهم.. في عرض رهيب للقوة الفردية والجماعية،

جعل الخطوط الدفاعية الايرانية تتساقط واحدا اثر الاخر، وفي هذه الحالة، تغيّرت المعادلة التي بنى الايرانيون صورة المعركة بموجبها، عندما أفترضوا ان اختيار هذه الارض لبدء الغزو سيجد من التفوق التكنولوجي العراقي فيركزون آنذاك على التفوق العددي في الافراد، فأذا بنوع القتال، الفدائي الهجومي وعمليات الاغارة الفردية في ظروف صعبة دون مساندة من عوامل التفوق التكنولوجي تجعل العامل البشري في صالح العراق، وليس العكس ومن هنا انقلبت صورة المعركة منذ بدايتها، وقد برهنت هذه المعركة، إن خطر المقاتلين الايرانيين هو خطر هش، ولا يشكل تحديا امام قوات تجمع بين التأهيل الفردي والكفاءة القتالية، وبين القناعة بقضية القتال وبين أحترامه.

وكان من العيب، للمقاتل العراقي، ان يجد في صورة الغازي الايراني حالة تقترب من عناصر قوته، لان روح الاندفاع لديه المقاتل الايراني تشبه حالة شخص خاضع لمؤثرات اصطناعية مؤقتة التأثير... فبمجرد مواجهته وملاحقته والاغارة عليه، يسقط بين الانهيار الهستيري والذهول الاخرس. واظهرت تلك المعركة، ومعارك التحرير اللاحقة في الشلامجة، ومجنون، والزبيدات، وفي مناطق الشمال الجبلية، ان أي تقدم محسوب ومخطط له نحو موضع ايراني، مجرد التقدم، يعني كسب نصف المواجهة، بينما يكسب القتال وادواته، نصفها الاخر.

# تحرير ابواب البصرة

**١٦ نيسان (ابريل) ١٩٨٨ :**

الرئيس صدام حسين يلتقي نهارا، في فضاء مفتوح على طرف حديقة واسعة، بأربعة رجال احاطوا بطاولة مستديرة، مدير هيئة التصنيع العسكري، رئيس اركان الجيش، مدير الاستخبارات، ومعاون رئيس اركان الجيش للعمليات.. كل شيء كان قد اكتمل. هناك خطة وضع خطوطها الرئيسة صدام حسين، وهناك صفحات في التنفيذ توزعت على جميع صنوف الجيش.. اعطى الرئيس، القائد العام للقوات المسلحة امراً محدداً حول الساعة (س) واليوم (ي). استبدل (س) بالتوقيت ٦٣٠ واستبدل (ي) باليوم ١٧ نيسان (ابريل) ١٩٨٨ ـ واختار تسمية (رمضان مبارك) للعملية العسكرية الكبيرة.. (توكلوا على الله).. قالها الرئيس وودّع الرجال الاربعة الذين انطلقوا الى واجباتهم متحلين بهدوئهم المعتاد.

**الفجر يوم ١٧/٤/١٩٨٨ الساعة ٥٤٥**

مازالت هناك خمس واربعون دقيقة قبل لحظة الشروع، بدأت المدفعية العراقية المحيطة بمثلث شبه جزيزة الفاو فتح نيرانها، مُباشِرةً قصفاً شاملاً للمواقع الايرانية، في الشمال والغرب والجنوب، بل من كل نقطة تقابل خطوط التماس، عيارات مختلفة من المدفعية صبت قذائفها في تمشيط تمهيدى، وسقطت القذائف فوق كل مربع داخل المثلث

المحاط بالمياه من ضلعيه الشرقي والجنوبي،.. خمس واربعون دقيقة، كانت تعادل ساعات متواصلة من القصف المدفعي الذي تعود عليه الايرانيون في هذه الجبهة، خمس واربعون دقيقة للتمهيد فقط، كأنه العزف الغاضب الذي يسبق ساعة منتظرة منذ ستة وعشرين شهرا استمر فيها الوجود الايراني على ارض شبه الجزيرة..

## الساعة ٦٣٠ - ١٩٨٨/٤/١٧

كانت اصوات المسرفات والدروع تدك الارض، والجنود يسبقونها بنداء واحد الله اكبر.. الله اكبر..، وبدأ رتلان عسكريان بالزحف في لحظة واحدة،.. قبل دقائق تبادل القادة التحية، واتفقوا على الموعد، والموعد مكانه «الفاو»..

في القواعد الجوية كان كل شيء جاهزاً، فقد حيّا الطيارون بعضهم البعض، ورفعوا الاكف من مقصورات الطائرات، وعبر الزجاج كان الواحد منهم يراقب شفتي الاخر.. تردد : (موعدنا في الفاو)، اما في اطراف البحر فقد امضى رجاله الليل يتأملون الخرائط، ويمخرون في مواجهة القواعد البحرية في انتظار الساعة (٦٣٠).. كل منهم كان يعرف ان هناك رجالا اخرين في اماكن اخرى في انتظار هذه الساعة..

رجل تطلع في ساعديه، وابلغ مساعديه ان الساعة عند الايرانيين في (الفاو) هي (السادسة).. فقد وقتّوا ساعاتهم في الفاو المحتلة على توقيت طهران، بعد اعلان الضم الرسمي لهذا الجزء من العراق الى ارض ايران وانوائها الجوية وتوقيتها الرسمي.. قال الرجل: «ساعة الفاو ستعود الى توقيتها.. نحن نبدأ الساعة ٦٣٠ بتوقيت الفاو..»

الرئس صدام حسين، كان في السماء يحلّق فوق الارتال العسكرية

الزاحفة،.. كان كل رجل على الارض في انتظار هذه الساعة. لكن صدام حسين كان بأنتظارها بطريقة مختلفة، ففيها يتوّج صبر سنتين وشهرين لم تغب فيها الفاو عن باله، خطط لهذه الساعة، واعدْ لها قواتها، واختار توقيتها، وصمّم الايقاعات التي سبقتها، وتحكمّ بالتفاعلات التي مرت على ستة وعشرين شهرا سبقتها بكل ما حملته من تحديات ومواجهات وقتالات ندر ان عرفتها حرب في تاريخ البشرية.

على الارض.. كان حلول صدام حسين بين رجاله مع نجليه عدي وقصي، الفأل الحسن الذي رافق الساعة التي اختارها.. وبدأ الرجال مباراة عرض الكفاءة والقوة والبطولة والذكاء، الكل ينظر في محياه ويتطلع الى عينيه، لينهل شيئا من الثقة والعزم.. وكانوا يستمعون الى دعواه المباركة:

«توكلوا على الله..»

اما العسكريون الذين سبق ان قاتلوا على اطراف الفاو قبل ستة وعشرين شهرا، فقد كانت عندهم مشاعر مزيجة من الشوق والغضب كل منهم، مشدود بحبل سري الى قلب كل عراقي والى عقله.. دقت الساعة ٦٣٠، ولم تكن مثل كل الساعة التي مرّت في الحرب.

هل تأخر موعد الساعة ٦٣٠..؟

الجواب الذي تبنّاه العراق هو ان التوقيت مسألة فنية سياسية عسكرية هي خلاصة التقاء جميع تفاعلات الصراع، المهم هو المبدأ العام الذي يتحكم بهذا الصراع: ثمة ارض عراقية وطأها الغزاة ولابد من استعادتها، اما متى وكيف.. فهنا تأتي اجابة العقل الذي يتحكمّ بجميع ايقاعات المنازلة، في الرابع عشر من ايار (مايس) ١٩٨٦، بعد

(خمســين) يومــا من استقرار الموقف العسكري في الفاو عند خطوط دفــاعيــة جديدة ناشئة عن غزوها واحتلالها، ترأس الرئيس صدام حســين اول لقاء عسكري لوضع خطط تحرير الفاو، وكان بينه وبين تنفيذ خطة التحرير تسعة اجتماعات عقدها الرئيس لهذا الغرض وحده.

وتعــاملت القيــادة العراقية مع دعوات الاستعجال لتحرير الفاو، بكثير من الصبر والتأني، استنادا الى عاملين: الاول وضع خطة دقيقة وتــوفــير مستلزمــات نجــاح تنفيــذها من الناحية العسكرية والفنية والعمليــاتيــة، والثــاني: اختيــار التوقيت الذي يستوعب التفاعلات السياسية والنفسية في تطور وقائع الحرب على مستوى طرفي النزاع وفي النطاق الاقليمي والدولي.

وقــد ادى التأجيل المنظّم لتحرير الفاو. وعدم الوقوع تحت ظرف الاستعجال ودوافعه وآليته الى تفويت الفرصة على الايرانيين لتحقيق احد اهدافهم في استنزاف القدرات العراقية، او سحب جزء منها الى افخاخ مبيّتة في شبه الجزيرة في الاسابيع الاولى التي تلت احتلالها، فثمة تصور متكامل للحرب وتفاعلاتها، يقوم على ان معركة واحدة لا ينبغي ان تسحب ـ مهما كانت نتائجها ـ القرار العراقي في غير الاتجاه الذي يحــدده في الزمــان والمكان، رغم ما يحمله الصبر على احتلال الارض من هموم وتحدّيات.

بينمــا كانت الاشهــر الفاصلة بين نيسان (ابريل) وكانون الأول (ديسمبــر) ١٩٨٦، مثــالا لتــطبيق مبــدأ دفع الايرانيين لاخراج ما يختبىء في مكــامن القوة العسكرية والنفسية والاعتبارية، في مقابل تنفيذ خطة عراقية قائمة على استخدام متوسط القوة، وتقسيط دفعاتها

في انتظار موعد اخر، لمواجهة سلسلة الهجمات الايرانية الكبيرة بأتجاه مدينة البصرة منذ اواخر ١٩٨٦، حتى اواخر نيسان (ابريل) ١٩٨٧، وهي الهجمات التي اعدتها ايران لـ (حسم الحرب) طبقاً لشعارها الرسمي المعلن آنذاك.

ومع افشال خطة ايران لاستنزاف العراق عبر سلسلة من هجمات متبادلة على اطراف الفاو في ربيع ١٩٨٦، كان الهدف الاخر هو ترك القوات الغازية تترهل بعد انهاكها بالقصف المدفعي بين فترة واخرى، بحيث يصبح الزمن العابر فوق رؤوس الجنود الايرانيين سحابة موت بطيء، وهو الامر الذي حاول القادة الايرانيون معالجته بأستبدال القطعات العسكرية الموجودة في الفاو كل ستة اشهر بقطعات اخرى يجري نقلها من معسكرات خلفية او خطوط مواجهة في جبهات القواطع الوسطى والشمالية.

هل كان صدام حسين من طراز القادة الذين يؤجلون مهمات تحرير الارض الى جيل اخر..؟ لو طرح الايرانيون هذا السؤال على انفسهم وحاولوا الاجابة عليه، لتحاشوا التورط في احتلال الفاو واراضٍ عراقية اخرى، ولوجدوا تفسيراً للهدوء الذي يتعامل به صدام حسين مع التحدّيات التي فرضها الغزو الايراني لاجزاء من ارض العراق.

ان قائدا مثل صدام حسين، يشعر بمسؤوليته عن الارث الذي سيتركه لجيل قادم، ويرى ان مسؤولية الحاضرين من هذا الجيل، لا تنحصر في مفردات الحاضر وتفاعلاته بل تتوزّع على مستويين آخرين، الاول: الحفاظ على الارث الاخلاقي والاعتباري الآتي من الماضي، والثاني تخفيف العبء عن الجيل الآتي، وعدم الاتكال على الزمن لانتظار انضاج عوامل النهوض، وتأجيل تفريغ التحدّيات الى عقد اخر،

فقد جاء في زمن الحاجة اليه ، وجاء في لحظة البحث عن الدور التأريخي للقائد، ولذلك فأن هذا الطراز من القادة في تأريخ البشرية لا يؤجل مهمة من مستوى تحرير الارض الوطنية الى جيل اخر، رغم ان ذلك ليس من المهمات السهلة على الاطلاق.

الامر الاخر، الذي لم يعاينهُ الايرانيون مليّاً، هو ان صدام حسين قائد مقتحم يفوّت على اعدائه دائما فرصة اختيار توقيتات المنازلة وجغرافيتها، ويُفّرغ من جعبة عدوه شحنة الصدمة، ليتفرغ لتصفية حسابات متراكمة معه، وهو في ذلك يملك نظرة كليّة وشمولية للصراع، لا تنسحق تحت الظرف الطارىء والاستثنائي في سياق الحرب الطويلة. وفي ذلك تظهر قاعدتان في طريقة التعامل مع المتغيرات الصعبة، الأولى: عدم الوقوع في المطلق لوصف حالتي التقدم والتراجع، بأعتبار ان اية حالة لوحدها لا تقرر النتائج النهائية الشاملة للصراع، وان هناك هامشا محتملا في مرونة الحركة الى الامام او الى الخلف.

الثانية: المحافظة على التوازن في ايقاع رد الفعل، بأخراج القرار المواجه للتحدّيات من شحنة الانفعال والتلقائية وأبقائه في ايقاعه المصمم له اصلاً.

لذلك فأن تحرير الفاو وشرق البصرة في قياسات زمنية مثيرة، وبأداء عسكري منظّم ومتكامل، لم يكن نتيجة طارئة بل هو خلاصة عوامل الصراع بالمعنى العام، وخلاصة فن ادارة هذا الصراع من الجانب العراقي، وتخصيصا كان ثمرة للدور الذي يضطلع به رجل هذا الزمان: صدام حسين . . .

العائد لتحرير ارضه اعرفُ بشِعابها..

هذا هو قانون الارض ومعاشريها، وقد كان صمّام الآمان بالنسبة للعـراقيـين طوال فتـرة الاستعـداد لتحـرير شبه جزيرة الفاو، رغم التغيـيرات التي احدثها الايرانيون على طوبوغرافية شبه الجزيرة، والمواقع التي بنوها، كمواضع، وترع، وجسور، وسواتر ترابية، وهيئات للتمويه.. ولكن بقيت الارض هي الارض نفسها..

الملحة، ظلت في مكانها، ارض رخوة متخلخلة تتكون من ثلاث الى اربـع طبقـات، هي الماء والملح والطين الرسوبي او هي الماء والطين الرسوبي والملح ثانية، وعندما كان على الجنود العراقيين ان يخوضوا فيها كان الجذع من جسد المقاتل ينغمر الى منتصفه في اول الليل، ثم يبلغ الاغمار كتفي المقاتل عند اول الفجر، ويداه مرفوعتان تحملان رشاشة، او بندقية، ما يكاد يتحرك في الارض المبتلعة حتى تتمزق ثيابه التي ابرتها الاملاح.

وقبل ان يباشر العراق تحرير الفاو، كانت مملحة اخرى غير مملحة الفاو قد أُعدت في مكان اخر، الارض الرخوة نفسها، بالطبقات المخادعة ذاتهـا، والامـلاح التي تُبـري ثيـاب من ينغمر فيها، وباشر الجنود العـراقيون تدريباتهم على (الفاو النموذج) ، جرّبوا الحركة في غمار المالح ووسط الغامها، في الشتاء القارص الذي تتيبّس فيه العروق بردا.. وفي الصيف الحارق الذي تتيبس فيه العروق عطشا ، وكان ذلك جزء من خطة الاستعداد لتحرير الفاو.

كانت الخطة تقضي بأن يعرف كل آمر وحدة عسكرية مكانه، من اين

ستكـون صولته الاولى، وفي أي اتجاه سيخترق الدفاعات الايرانية الحصينـة، واين سيتمـوضع، ومن اين سيعاود القفز ثانية في رحلة تطهـير ارض شبـه الجـزيرة، ولذلك كان بأمكان القيادة العسكرية العراقية ان تعرف بالدقائق ايقاعات اقدام الجنود والآمرين، فقد وضع صدام حسين منهجا واضحا وصبوراً، تضمن مفردات عملية التحرير، بدءً بما كشفه بعد تحرير الفاو ـ من تدريب القطعات العسكرية في منـاطق مماثلة في طبيعتها الطوبوغرافية لمنطقة الفاو، جرى التدريب فيها تحت اقسى الظروف الجوية حراً وبرداً، بعد ان استوعب كل مقاتل مهمته، نفسيا واستشعر قيمة العمل الثوري الذي سيقدم عليه.. وهو من اكبـر الاعمال التي يمكن ان يتوجّه اليها: تحرير جزء من ارض الوطن من سيـطرة غزاة وطأوه في ظروف سوقيـة وتعبوية خاصة لم يجدها العسكريون العراقيون متكافئة او طبيعية .

وقامت فلسفة تحرير الارض في الفاو، ثم شرق البصرة على مبدأين: الاول تحديد المهمة، بمعنى وضوح الهدف، والثاني هو تحديد خطة المنـاورة بمعنى تصميم ايقـاعـات الفعاليات السياسية والعسكرية والاعتبـاريـة لتخـدم الهـدف، واعتمد العراق المركزية في التخطيط بأشراف مباشر من الرئيس صدام حسين الذي صمم الخطة العامة للحركة.

ومرّت الاستعدادات بمراحل متداخلة ومكملة تأسست على فكرة عدم اضاعة يوم واحد سُدىً من الزمن المستثمر لوضع خطط تحرير الارض العراقية بدءً من متابعة المعلومات اليومية عن الفعل العسكري السياسي الايراني وتدقيق هذه المعلومات واختبارها وتحليلها، في غرف فحص دقيقة قادرة على التمييز والانتقاء والتفسير، ثم القيام بأنتخاب

القطعات العسكرية المكلفة بمهمة تحرير الارض في الفاو وسواها، وتدريبها على ارض مشابهة لأرض الواجب، وتأمين المعدات والوسائل العسكرية المناسبة في العمل على هذا النوع من الارض طبقا لطوبوغرافيته الخاصة مع ما يرافق الاستعداد والتنفيذ من مناورة موضعية وسوقية في الاداء العسكري ومكملاته.

لم يُباغت الايرانيون في الفاو، فقد كانت استعداداتهم العسكرية في ذروتها، واختاروا افضل فرق الحرس للعمل في شبه الجزيرة استجابة للاهتمام السياسي والعسكري بوجودهم على هذا الجزء من ارض العراق، وكانت القطعات الايرانية مهيئة من الناحية العملية لخوض معركة طويلة في مقابلة هجوم عراقي مرتقب ومتوقع، والى جانب الاحتياطات التي اتخذت فوق شبه جزيرة الفاو، كانت هناك احتياطات اضافية مساندة في جزيرة عبادان، بحيث صممت الدفاعات الايرانية وتحصيناتها على مدى سنتين وشهرين كاملين، لضمان رد اي هجوم عراقي يهدف الى استعادة المنطقة، وكانت المدة التي استمر فيها الوجود الايراني على ارض شبه الجزيرة كافية لبناء الدفاعات واجراء تغييرات في طوبوغرافية الارض وانتخاب القطعات الايرانية المدربة للعمل في المنطقة.

وبنى الغزاة ثلاثة سواتر ترابية يزداد ارتفاعها علوا، واحدا بعد الاخر، ويبلغ اعلاها وهو الساتر الثالث اكثر من ثلاثة امتار ارتفاعا يتداخل معه ساتر داخلي رابع يستخدم الطريق الفاصل بينهما كموقع للمقرات الخلفية، ولاخفاء حركة السيارات العسكرية، بينما تُستخدم الشقوق الارضية لمسير المشاة.

وشقّ الايـرانيـون بين ثلاثـة سواتـر ترابيـة سلسلة من الترع والحـواجز المائية الاصطناعية، بقصد منع عبور الدروع والمشاة، واراد الغزاة ان يتخذوا من منطقة المالح (وسط الجزيرة) خطا عازلا يحجز عبور الدروع، معتمدين على طبيعة الارض الرخوة المتخلخلة، المغمورة ببقع مائية، بحيث يتعذر وجود مكان صلد فيها لمسير الدروع، وحتى المشاة ايضا، ووجدوا في المنطقة خط الدفاع الاول، المكون من ثلاثة سواتر ترابية يزداد ارتفاعها على التوالي.

وفتحوا خطوط الماء من شط العرب الى المملحة لادامة الاغمار في المنطقة.

واحتمى الغـزاة بمواضع خرسانية تحت الارض غُطيت سقوفها بالتـراب وبـوسـائـل التمويه للحماية من الغارات الجوية وافترض الايرانيون ان هذه المواضع ستكون منيعة بما فيه الكفاية للحماية من القصف الجـوي والمدفعي، وكانت سلسلة المواضع المخفية المتصلة تحت الارض الملاذ الذي تلجىء اليـه قوات الغـزو، مع معـداتهـا العسكرية الاكثر تطورا، وعلى الخصوص، اجهزة الاتصال والتوجيه، ومقرات القيادة الميدانية، بهدف تمكين القوات الغازية، من المقاومة لمدة يومين كاملين يتأخر فيهما الزحف العراقي، ويتم خلالهما بموجب الخطة الايرانية ارسال قوات أحتياطية موجودة على الطرف الاخر من جزيرة عبادان.

وغُـطيت شبه الجزيرة بمنظومة مواضع منيعة، الى جانب المواقع الكونكيرتية المحصنة، والسواتر الترابية العالية، واغمار الارض الحرام الواقعة بين الخطوط العراقية والسواتر الايرانية بالمياه؛ وبناء مجموعة مراسٍ صغيرة للزوارق على طول الشاطىء المحتل من شط العرب وعلى

ساحل الخليج، وتشييد معرقلات هندسية وبنائية متنوّعة، وشق ثلاث قنوات رئيسة يبلغ عرض الواحدة منها سبعين مترا تمتد من شط العرب شرقا الى هور الزبير غربا لعرقلة الزحف العراقي، وبناء مخازن لحفظ المؤن الكافية حتى في حالة انقطاع الامدادات، وتخزين السلاح، وانشاء جسور عائمة وجسر ثابت على شط العرب، ولكن ذلك كله لم يصمد حين بدأ زحف القوات العراقية في لهيب الساعة ٦٣٠.

تميزت المنطقة التي اندفعت فيها قوات الفيلق السابع يمين شط العرب وشماله، بأنها منطقة مكتظة بأشجار النخيل المتوزعة على مسافة تتراوح بين ٢٠٠٠ ـ ٨٠٠م من حافة الشط، وتتخللها السواقي ويكثر فيها القصب والبردي، وتفصلها عن الضفة الغربية لشط العرب مسافات متعرجة تبلغ في اضيق انحناءات الشط خمسمائة متر واوسعها ثلاثة الاف متر، وتسمح تلك المنطقة بأختباء المشاة، وبناء مواضع فردية متخفية، تجعل عملية تطهيرها، امرا معقدا لسببين، الاول: ما تتمتع به المنطقة من عوامل التخفي والدفاع الذاتي،

والثاني: قرب مواقع القوات الايرانية المساندة على الضفة الغربية من شط العرب، حيث تقع جزيرة عبادان التي تمتد غربا من الحافة الشرقية لشط العرب حتى نهر بهمشير شرقا، ويبلغ طولها اكثر من (٦٥) كليومترا، ويتراوح اتساعها الافقي بين خمسة كيلومترات في الوسط واكثر من عشرين كيلومترا في الجنوب، وقد اتخذها الايرانيون كتلة جغرافية للاسناد وتوجيه النار في مقابلة شبه جزيرة الفاو، قبل الغزو وخلاله وضمن خطة الدفاع ضد الهجوم العراقية المتوقع لاستعادة الفاو، وكانت تتمركز في الجزيرة فرقتان ايرانيتان تقومان

بأسناد الفرق الايرانية التي بقيت في الفاو ستة وعشرين شهرا.

وتتصف منطقة الشريط المجاور لشط العربي بأنها ارض رسوبية مالحة غير صالح لمسير العجلات العسكرية، وتقع فيها (ناحية الخليج) ثم منطقة (المعامر)، وهو موقع يعود وجوده الى الثمانينات من القرن التاسع عشر حيث كانت الفاو تنفصل عن المعامر بأخدود ينحني مع انحناءة الشط يعرف (بحد موسى) كما كانت المعامر نقطة الوصل بين الفـاو والبصرة حيث يتم العبور بأستخدام جذوع النخيل والقوارب الصغيرة لتجاوز الترع وحوزات الماء في هذه المنطقة.

ورغم ان ذلك الطريق كان احد الطرق الثلاثة القديمة الموصلة بين الفاو والبصرة في القرن التاسع عشر، فقد استمر استخدامه حتى وقع غزو الفاو في التاسع من شباط (فبراير) ١٩٨٦، بعد اجراء تعديلات عليه، وتطويره طبقا للتغييرات الطوبوغرافية التي مرّت على المنطقة، الى جانب طريقين آخرين، الاول يعرف بالطريق الاستراتيجي من الفاو عبـر المملحة وسط شبه الجزيرة، والثاني الطريق الساحلي المحاذي لخور عبدالله والذي يقود في اتجاه ميناء ام قصر، وتلتقي الطرق الثلاثة في منطقة تسمى (عقدة الفاو).

وعندما اندفعت القوات العراقية على رتلين في الساعة ٦٣٠ صباح يوم السابع عشر من نيسان (ابريل) ١٩٨٨، كانت الخطة مقسمة على ثلاثة مراحل، الاولى تقضي بالوصول الى قناة الاغمار بالمياه المعروفة بالقناة رقم (١) ، وقد انجزت المرحلة الاولى في الساعة الحادية عشرة صباحا، اما المرحلة الثانية فكانت تقضي بالوصول الى قناة اغمار المياه رقم (٢) وجنـوب عقـدة الفاو حيث تتجمع الطرق الثلاثة الصاعدة والنازلة من والى الفاو، وقد بلغتها القوات الزاحفة في الساعة الخامسة

والنصف مســاء، بينمــا استمرت العمليات في المرحلة الثالثة ليكتمل تطهير مدينة الفاو في الساعة الثالثة وخمس وعشرين دقيقة من صباح يوم الثامن عشر من نيسان (ابريل) واكمل الحرس الجمهوري اندفاعه بمحاذاة خور عبدالله ليبلغ رأس البيشة وهي النقطة النهائية على راس الخليج (٨ كيلومتر جنوب مدينة الفاو)، في الساعة الخامسة والربع بعد ظهر يوم ١٨/ ٤/ ١٩٨٨.

وبذلك استغرقت عملية تحرير الفاو اربعا وثلاثين ساعة وخمس عشرة دقيقــة مضافاً اليها خمس واربعون دقيقة استغرقها القصف التمهيدي الذي سبق ساعة الشروع.

وقــد انقسم زحف القوات العراقية الى رتلين، الاول تولّاه الفيلق السابع الذي سار بموزاة الضفة الغربية لشط العرب وفي اعماق خط بساتين النخيل والقصب.

واندفع رتل قوات الحرس الجمهوري في المنطقة بين المملحة وحتى ساحل خور عبدالله وصولا الى الفاو ثم رأس البيشة.

وتــوفــرت للبحــرية العراقية فرصة جديدة هذه المرة، مثلما كانت معارك الفاو في سنة ١٩٨٦، فرصة وامتحانا لهذه القوة البحرية الفتية، التي اظهرت كفاءة عالية وجديدة في القتالات البحرية آنذاك وطبقا لحديث جرى بيني وبين قائد البحرية العراقية آنذاك، فأن الزوارق والطوربيدات العراقية تمكنت من مهاجمة القوات البحرية الايرانية، واصطياد اهداف ثمينة في اعالي البحار، بحيث اخرجت نصف القوة البحرية الايرانية من الحرب رغم انها تزيد خبرة وعمرا عن عمر وعدد البحرية العراقية التي تأسست فعليا بعد عام ١٩٦٠.

وفي معارك تحرير الفاو، خرجت القطع البحرية العراقية، من ثغورها

لتمسح الساحل المقابل لخور عبدالله وتلعب دورا مساندا، مستخدمة قوة نارية كثيفة في مهاجمة المواقع الايرانية على البر المقابل لخور عبدالله وقاطعة الطريق في الوقت نفسه على اية محاولة قد تقوم بها البحرية الايرانية لانقاذ الايرانيين المحاصرين في شبه الجزيرة تحت طرفي الكماشة البرية المطبقة.

وتولّت القوة الجوية، مهمتين اساسيتين الاولى: تدمير الجسور، التي تربط بين ضفتي شط العرب، بحيث تقطع طريق العودة على قوات الغزو في الفاو، وتمنع في الوقت ذاته الامدادات الايرانية القادمة من الضفة الشرقية في لجزيرة عبادان، وكان عدد الجسور اربعة، احدها دائم وثابت، وقد بني من انابيب نقل النفط العملاقة، وغُطي بطبقة كونكريتية صلبة ذات سُمك يبلغ مترا واحدا، بينما تمتد انابيب النفط، الفولاذية الى قاع شط العرب في تشكيلات صليبية متقابلة، جعلت تصميمه قابلا لتحمل الضربات الجوية حتى في حالة استخدام القنابل شديدة التأثير، كما وضعت الانابيب في اتجاه حركة المياه لامتصاص الهزّات القوية على سطح الجسر، وقد اظهرت الصور الملتقطة من الجو بعد انتهاء المعارك، ان الطيران العراقي اتبع اسلوب الضربات المتتالية وسط الجسر مستخدماً قنابل معّدة لهذا الغرض ادت الى قطعه الى ثلاثة اجزاء بعد ان كان معّدا في الاصل ليكون جسر الانقاذ الرئيس في منطقة الغزو.

اما المهمة الثانية التي قام بها الطيارون العراقيون، فكانت مهاجمة المواقع، الخلفية لفرق الاسناد الايرانية في جزيرة عُبادان في نطاق عملية تجريد واسعة شملت المعسكرات وعقد المواصلات ، ومناطق تحشّد الافراد والدروع، وكانت اهم الاهداف التي اخرجتها القوة

الجـويـة من المعركة، هي مقّرات القيادة الميدانية الايرانية، ومراكز الاتصال بين هذه المقرات والقيادة العسكرية العليا في عمق ايران، بما في ذلك اخراج احدى سفن القيادة والاتصالات، التي كانت تعمل في منطقة مقابلة لشبه جزيرة الفاو...

وكـان دور (الدبابات الطائرة) وهو الاسم الذي يصف به طيارو السمتيـات انفسهم، هو القيام بعمل ميداني مساند قريب ومتصل بخطوط الالتحام، حيث هاجموا التجمّعات البشرية، وعقد المواصولات والدروع الايـرانية على الارض، وقدموا اسنادا مباشرا لقوة الهجوم العراقية الزاحفة.

اتسمت عملية تحرير الفاو بالخصائص التالية :ـ

١ ـ معـركـة مشتـركـة شاركت فيها صنوف الجيش الثلاثة البرية والبحـريـة والجوية ،وكان المشاة فيها رأس الرمح الذي انجز مهمة تحرير الارض حين زحف المقاتلون العراقيون الى المواضع الايرانية، وتقابلوا رجلا الى رجل، وازاحوا الغزاة، وتجاوزوا قيود الطبيعة الصعبة ومخاطرها.

٢ ـ انها معركة قارية دارت على اليابسة من شبه جزيرة الفاو، رغم احاطة المياه لضلعين من الاضلاع الثلاثة لشبه الجزيرة، وبذلك فأن الفعالية التي جرت على اليابسة كانت فعالية جميع صنوف الجيش، كان رأس الرمح فيها هم.. المشاة.

٣ ـ اظهـرت المعـركـة ان العـراق تمكّن من منـع القوات الايرانية الأحتياطية على الضفة المقابلة لشط العرب من التدخل لانقاذ القوات الغازية على يابسة الفاو.

٤ ـ ان سلاح الهندسة العراقي ساعد في اقتحام الخطوط الدفاعية الحصينة للايرانيين وازالة المعوّقات المتنوعّة، التي وضعوها في طريق القوات العراقية.

٥ ـ ظهور دور البحرية العراقية كعامل مساند في عملية قارية صرف وهو الدور الذي يُكمّل صفحات المشاركة في القتال الذي لعبته القوة البحرية بحيوية في معارك الفاو عام ١٩٨٦.

## الساعة ١٧١٥ ـ ٨/ نيسان/ ابريل/ ١٩٨٨

انغرس العلم العراقي في اعلى الموضع الذي يتحكّم بمنطقة رأس البيشـة على رأس الخليـج العربي... وأنغرست جوار النخيل، وعلى فوهات المدافع، وفوق منصّات الدبابات، اعلام العراق.. ولم يبقَ من الغزاة في ارض شبه الجزيرة غير الجثث والاسرى والتائهين..

وبعودة الفاو عاد التوازن الى أمن اقطار الخليج العربي، وخسرت ايـران اكبـر ورقـة كانت قد حصلت عليهـا طوال الحرب، والسلام معروض عليها، وصارت دون هذه الورقة والسلام مازال معروضا عليها بنفس المبادىء والاسس، وبعودة الفاو فشلت خطة ايران للتحكم في مصب شط العرب، وهو اهم جزء فيه، واندحرت محاولتها لالغاء هوية الشط العراقية العربية.. وفكّ العراقيون الطوق عن باب البصرة الجنوبي.

## الساعة ٩٣٠ ـ ٢٥/ آيار/ مايس/ ١٩٨٨

باشر العراقيون بطرد الغزاة من شرق البصرة.. وفكّوا الطوق عن باب البصرة الشرقي.

## ٢٥ حزيران/ يونيو/ ١٩٨٨

انقضَّ الجنود العراقيون على القوات الايرانية في جزيرتي مجنون الشمـاليـة والجنـوبيـة في هور الحويزة، شمال منطقة الشلامجة ، فأخرجوا الايرانيين، واستعادوا كنزا يحتوي على ٣٠ مليار من النفط المخـزون كانت ايران تعتبره ثروة عراقية مستباحة كجزء من غنائم الحـرب. ولم يبقَ في الدائـرة المحيطة بالبصرة، جنوبا وشرقا وشمالا جندي ايراني واحد.

## الساعات والايام التالية

تحنّت أكف البصريات بحنّاء الفاو، ولم يبقَ من الغزاة على أطراف البصرة الشرقية والجنوبية والشمالية، غير اسرى تطوف بهم سيارات مكشوفة ارجاء المدينة، واسلحة غنمتها القوات العراقية.. وصدى من ايام الصبر والمطاولة والتضحية والتحدي.

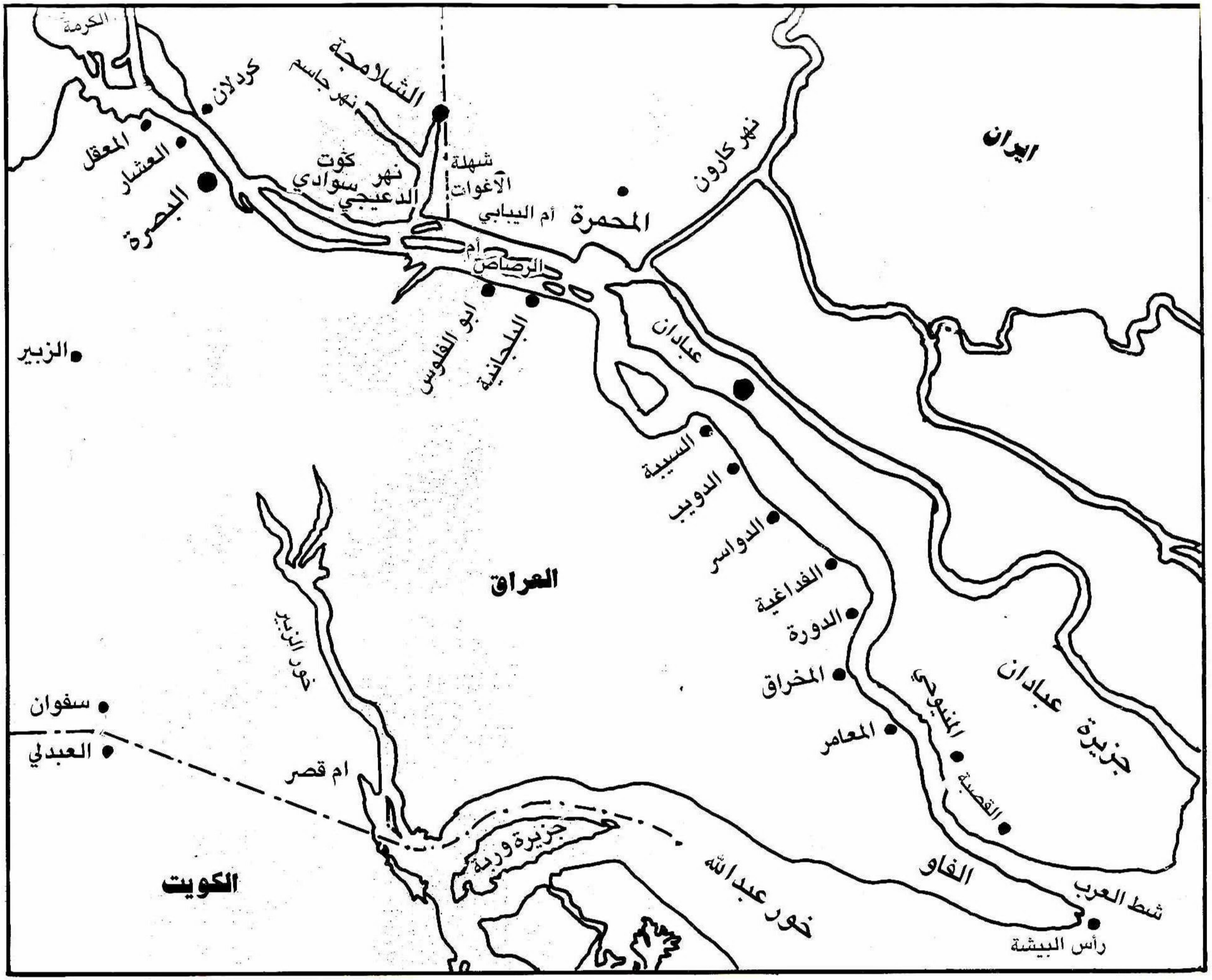
ايران
العراق
الكويت
الكرمة
كردلان
الشلامجة
نهر جاسم
المعقل
العشار
البصرة
كوت
نهر سوادي
الدعيجي
شهلة
الآغوات
المحمرة
أم اليبابي
نهر كارون
أم
الرصاص
ابو الفلوس
البلجانية
الزبير
عبادان
السيبة
الدويب
الدواسر
الفداغية
الدورة
المخراق
المعامر
المنيوحي
القصبة
جزيرة عبادان
الفاو
شط العرب
رأس البيشة
خور عبدالله
جزيرة وربة
ام قصر
خور الزبير
سفوان
العبدلي

# المحتويات


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| ١ ـ المفتاح مقدمة | ٥ |
| ٢ ـ طريق الحلم الاسود | ١١ |
| ٣ ـ الصراع الدولي على الفاو في القرن التاسع عشر | ٤١ |
| ٤ ـ صفقة دولية ثلاثية مهدت للغزو | ٥٣ |
| ٥ ـ صيد في السماء | ٦٥ |
| ٦ ـ صاروخ في انتظار طائرة الجلاد | ٨١ |
| ٧ ـ الفاو... قطعة ملح صماء | ٩١ |
| ٨ ـ خطة الغاء العراق | ١٠٥ |
| ٩ ـ انطفأ الحماس | ١١٥ |
| ١٠ ـ تحرير ابواب البصرة | ١٣١ |

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١١١٥ لسنة ١٩٨٨

دار الحرية للطباعة

# الساعة 630
## أسرار الفاو

هذا كتاب يندر ان يُكتب مثله..
إذ يجمع شهادات ومعلومات أفاد بها جنود و مؤرخون وصيادون وطيارون وعمال مما لح وقادة عسكريون وسكان من الفاو وضفادع بشرية ورجال مهمات سرية.. ليروي قصة أخلد معارك الحرب العراقية - الايرانية بكل ما حملته من أسرار سياسية وعسكرية..
ويوثق سعد البزاز في هذا الكتاب قصة الفاو منذ وجدت على جزء من ارض العراق، حتى دارت فيها أعقد معارك الحرب، جامعاً الاسرار ليعرضها بتأنٍ ودقة كما لم يُتح لسواه.
وقد لا يُكتب تاريخ الحرب دون الرجوع الى هذا الكتاب، الآن، وعلى مدى زمن طويل آتٍ.

الناشر

التصميم: ليث متي
طبع: دار الحرية للطباعة - بغداد
السعر ٢٫٥٠٠ د.ع
٦٫٥٠٠ دولار